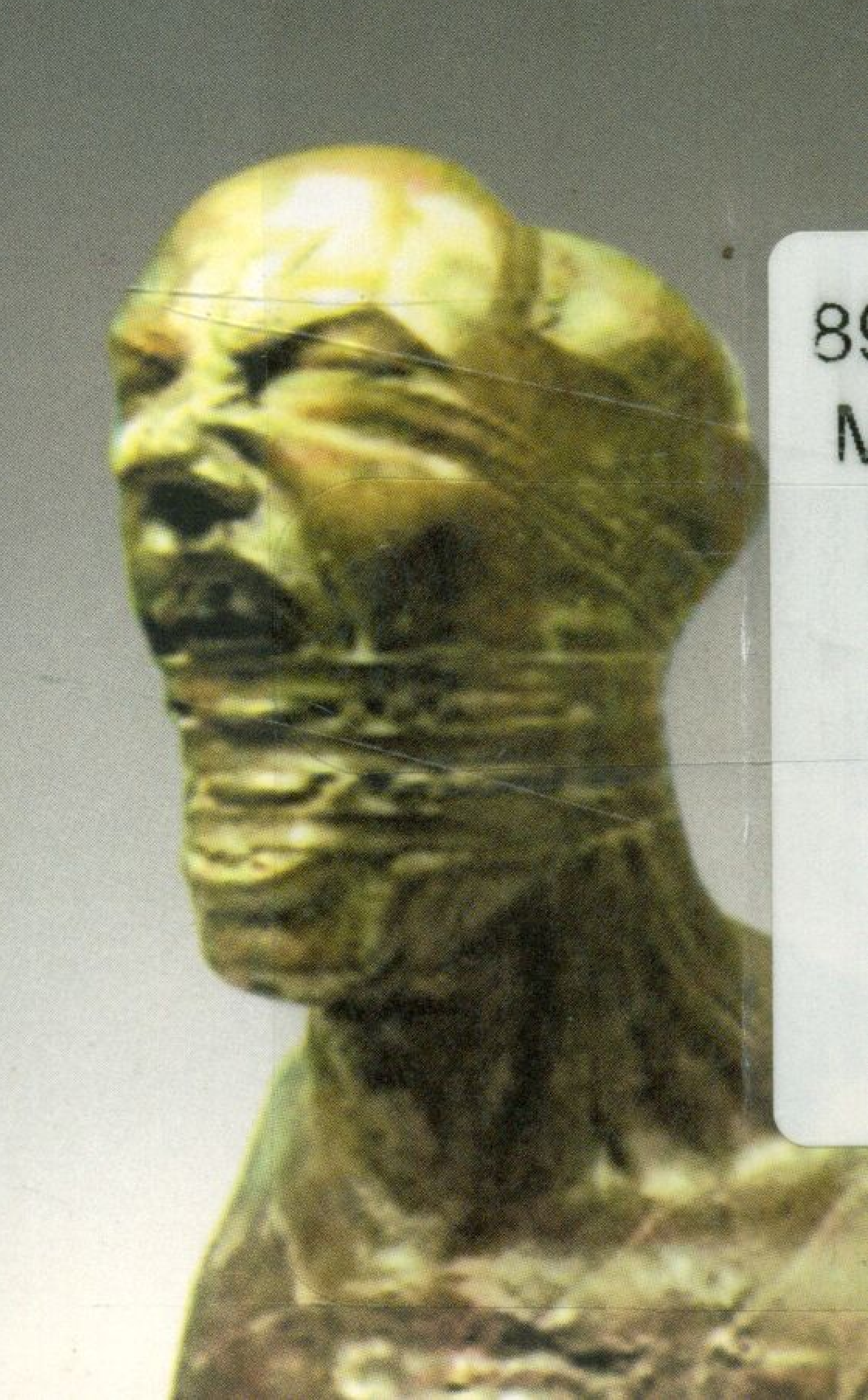
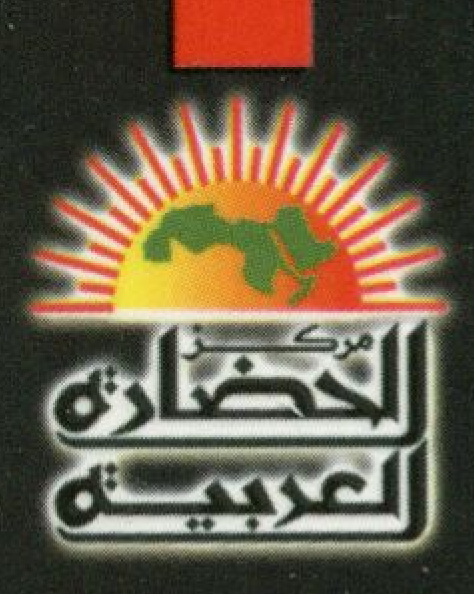
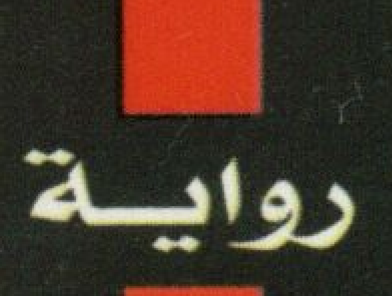
عباس منصور

الطماشة







الطمَّاشة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز
علي عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس: 3448368 (00202)
www.alhdara-alarabia.com
E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

عباس منصور

الطمَّاشــــة

"طَرَفٌ من مصائر الناس والخفافيش في حاريت"

رواية



الكتاب: الطمّاشة

الكاتب: عباس منصور
(مصر)

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢١٤٦٥

الترقيم الدولى:I.S.B.N.977-291-785-8

الغلاف

لوحة الغلاف: للفنان الكويتي: سامي محمد

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:

وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

الطماشة: طرف من مصائر الناس والخفافيش في حاريت: رواية/ ترجمة عباس منصور. – ط١. الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٦.

١١٢ ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٨-٧٨٥-٢٩١-٩٧٧

١- القصص الإسبانية.

أ- منصور، عباس (مترجم) ٨٦٣

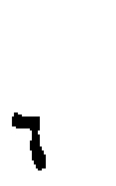
الإهداء

إليها..

منحة الرب ومؤنسة البصيرة في درب الحياة

إلى زوجتي..

عباس منصور



الجثة

"يوم على يوم

وإن طالتِ الفرقة

ما نسيت أنا يوم

ما نسيت أنا الرفقة"

قال بشير:

كانت حلقة الحبل تطبق بإحكام على عظام الرقبة وسط الصمت العالي والرطوبة المثالية على باب المغارة، ست وعشرون درجة من السلم الحجري يضطر الهابط للمغارة نزولها حتى يصل إلى الباب المنحوت من الحجر والمثبت من أعلى وأسفل على محور معشوق بجسد المغارة كانت الجثة تتأرجح بين الباب وعين النبع، المكان يبدو الآن وقد حلّت عليه اللعنة الأبدية، وربما أراد بوسالم فرهود حارس المغارة أن يصنع بنفسه تلك النهاية، وها هي جثته تتأرجح في الفراغ والوحدة، حقًا إن حياته طوال هذه السنوات بين هؤلاء الناس تدعو للغرابة، هو الرجل الوحيد بينهم الذي غمس حياته تمامًا في ملح الحياة، وحين وصل الدرجة الأخيرة في

أسفل السلم وضع عصاه على باب المغارة، خلع فردتي حذائه، تحرر من آخر قطعة من ملابسه صار عاريًا تمامًا، صعد النتوءات بجوار الباب، أحكم ربط الحبل في السقف، ثم أحاط الحلقة حول رقبته وهمس: "خاتمة تليق بهذا المشوار..!!" وترك الجسد يتدلى..

❀❀❀

قال بومصلط:

- لَمَ لا تتزوج يا بوسالم!؟

- وكيف أتزوج؟ أما ترى الأعداء لا يتوقفون عن تهديد حياتنا كل لحظة!؟

- يا لك من ساذج يا بوسالم! إن البيت الدافئ وسرب الأبناء من وسائل المقاومة المضمونة، إنه عملٌ ثوريٌّ تمامًا لا يقل خطورة عن حمل السلاح في وجه الاحتلال.

وأعقب بومصلط بضحكة طويلة كعادته ثم بصق في وجه الريح.

❀❀❀

كان جسد "بوسالم فرهود" يتدلى عاريًا مشنوقًا على باب المغارة اكتشف "سالمان المغوش" أمر الجثة وهو يحضر الإفطار كعادته لصاحبه "بوسالم"، في الصباح، صاح سالمان في الجبل، تراكض الناس، صفوف طويلة من الرجال والأطفال والنساء، والكلاب والقطط والماعز تدافعت وراء أصحابها، زحام كثيف على الدرجات الست والعشرين حتى موقع الجثة المدلاة من السقف عند باب المغارة.

صاح سالمان:

- لا أحد يقترب حتى تأتي السلطات، للحظة صار الجبل عاطلا عن الحياة، من قمته حيث "ضريح عمّار" تلوح التجمعات في شكل حلقات متدافعة نحو مركز واحد هو المغارة، بينما "فضل" ظل جالسًا جوار الضريح يحدّق في الجهة الأخرى.

قالت هند:

- يا جدي لقد شنق "بوسالم" نفسه على باب المغارة، أما تنزل لتدبر الأمر!؟ أعلم أنك لن ترد؛ لكن لا أحد غيرك يستطيع إنهاء الأمر.

❀❀❀

اشتدَّ الجدل حول الجسد المدلى، توعدهم "سالمان المغوش" بعقاب السلطات حين همَّ بعضهم بإنزال الجثة فتراجعوا، اقتربت الظهيرة، بدأ الناس يعتادون الفاجعة، دخلوا في نقاشات جانبية حول "بوسالم" أيام المقاومة، وحظه الشحيح من متاع الدنيا، وهم ينتظرون وصول السلطات. على مرمى البصر كان "بومصلط" على سطح داره عاكفًا على أعواد الخيزران وعصيٍّ الصنوبر منهمكًا في تجهيز المزيد من المقاعد التي تبدو للكثيرين طُرفة جديدة أو مزحة ساخرة؛ مما اعتادوه من "أبو مصلط".

- ألا تهبط وتر ما حلَّ بصديقك!؟

- أعرف كل شيء.

- وجدوه مشنوقًا على باب المغارة.

- بالأحرى عليهم أن يقولوا إن "بوسالم" شنق نفسه، إنها النهاية الطبيعية، وهناك الكثيرون سيصلون إلى نفس المصير.

❀❀❀

قال بشير:

آويت إلى صمتي ولم أُرد الدخول في تفاصيل أخرى خوفًا من أن يتسلل إليّ منطق بومصلط في فهم الحياة والتعامل مع معطياتها، إذ لا أجد ما استند عليه في مواجهة منطقه، فعلى الرغم من غرابته إلا أنني لا أجد ما أحتج به عليه؛ ولذا أردت أن يكون حديثي معه دائمًا في نطاق التفاهم الضروري لقضاء اللازم من الأمور ليس إلا.

- هل ستظل هكذا فوق سطح دارك وجثة "بوسالم" معلقة على باب المغارة؟

- كما ترى، أنا أجهز المقاعد والطاولات، فلا بد أن أكون مستعدًا لاستقبال الزوار والسائحين عندما يصير النبع والمغارة من معالمنا السياحية.

- سأذهب إلى فضل إذًا، يبدو أن لا فائدة معك!

- سآتي معك.

❀❀❀

بجوار الضريح كانت هند تستعطف جدها في النزول إلى المغارة وتدبير أمر الجثة إلا أن حديثها بدا مستحيلا، فهي تخاطب حالة تأبدت بالصمت واندمجت به. غيَّرت هند مجرى الحديث واستبدَّ بها التوتر.

- إن حياتي تتوقف على بضع كلمات منك يا جـــدي، وأنـــت تسمعني جيدًا وتعي كل شيء، فهل تظل علاقتي ببشير هكذا حتى الأبد.

صوتها كان أقرب لنشيج تختلط فيه الدموع والهمهمات حين وصل بشير بصحبة بومصلط.

- أما زال صامتًا؟

- نعم يا عم بومصلط.

وقفت ساكنًا أتأمل وجه هند والدموع قد هيَّأت في خـــديها طريقًا موصولا بينما ملامحها استغرقها هدوء تعبدي خاشع.

- إذًا دعوه وضريح عمّار؛ لكنني أود أن أخبرك بـــأن لا شـــيء سيعود، ولا شيء سيمضي مثلما تريد، فالجميع هنا يعيشـــون وفق ما يريدون، وإن بقيت صامتًا للأبـــد فلـــن يســـتديروا باتجاهك، أتفهم!؟ نحن نستعدُّ لحياة جديدة.

انصرف بومصلط، قام فضل ودخل الضريح، تاركًا بشير وهند.

قالت هند:

- هل كُتب علينا هنا في حاريت أن نعيش عالًما تبدو الأشياء فيه على وشك الرحيل؟

- تعالى نكلّم جدك معًا.

❀❀❀

داخل الضريح كان فضل مستلقيًا ساندًا ظهره وساعديه على رخام الضريح الذي تتدلى عليه أنسجة صوفية داكنـــة، تنتـــهي

بشراشيب تغطى حواف الضريح.

قال بشير:

- أنت تعلم كل شيء، تعلم رغبتي في الزواج من حفيدتك، فما رأيك؟

- كانت عينا هند مثبتة في عينيّ جدها، وكأن شعاعًا ينفذ من كيانها مباشرةً إلى كيان جدها عبر خيوط البصر في حين لم يبد الجد أية إيماءة أو تأثر.

- وتعلم أيضًا أن لا أحد غيرك يمكنني إشراكه في هذا الأمر فماذا تقول؟

وكأني أكلم نفسي، لم يبد فضل أية إشارة.

- إذًا أنت تحكم عليَّ أن أبقى وحيدًا بينكم! وما مصير هند؟ هل ستظل هكذا بلا رجُل؟ تكلم يا عم فضل، إنك تشقينا بصمتك.

انصرف فضل وتركنا بالضريح، حمل جرَّته، أخذ ينظفها ثم توجه للمغارة، في الطريق بدأت الناس تتكاثر وتزداد كثافتهم كلما اقترب من المغارة، وكأنهم للناظر من فوق تلة عمّار حلقات متكاثفة من دخان، موقد محتشد بالجمر والبخور، حين وصل فضل الشاهين إلى أول درجات السلم الهابط للمغارة كان عليه أن يدفع بعض الناس ليشق طريقه هبوطًا صوب النبع، توقف برهة، بهدوء التفت يمينًا وشمالا، كان ذلك كافيًا حتى يفسح له الجميع، نزل الدرجات الست والعشرين، أصبح في مواجهة الجسد المتدلى، ألقى عليه نظرة، غمس الجرَّة في ماء النبع حتى امتلأت، حملها وصعد السلالم آخذًا طريقه صوب الضريح وسط

أنظار المحتشدين في المكان، والتي راحت تتابعه حتى اختفى تمامًا.

صاح سالمان المغوش:

- ألم أقل لكم لا أحد يستطيع الاقتراب من الجثة قبـــل مجـــيء السلطات؛ حتى فضل نفسه لم يجرؤ!

قاطعه عقاب بوعسلي:

- ليست المسألة سلطات، إنما فَضْل هو الذي انقطع عن حياتنـــا من زمن ولا يعنيه التدخل في أمورنا.

تدخّل بومعزة شلهوب.

- وماذا لو لم تحضر السلطات!؟

رد بوعسلي منفعلاً:

- دعوها إذًا معلقة كحياتكم الفاسدة تمامًا.

الغريب

"ما لوم عيني لو بكت دمعها دم
ما لومها لو طوّلت بي سهرها
ويلي على اللي فارق الدار يا عم
من كثر السهر زاغ منها بصرها"

قال مهدي:

- هكذا ستبقى الجذوع العتيقة متشبثة بالأرض، عمياء، تكابر أمام ضغط الزمن، بالضبط كتلك الظلال الهرمة التي تتبع عقاب بوعسلي ومزيد بوسلطان وبوعلي شهاب وبومصلط سليم.

ردّ بشير:

- لا تنس أنهم رفقة كفاح، بينهم زمن حيٌّ وثقيل يا مهدي.

بومصلط سليم مهباج لن يصدق وإن طالت الرفقة أن هناك ما يستحق التضحية بصدر امرأة عنيد ودافئ، وما دام الزمن يدفع كل شيء للوراء فلمَ الكآبة؟ لَمَ التعلق بالأمس؟ هذا منطقه دائمًا تحس به روحه وتتمتم شفتاه وهو في الشمس على سطح داره مستلقيًا بجوار حماره الذي يرعى العشب النامي بفعل المطر

المنهمر على التربة البركانية المكدسة فوق سطوح الدور وقاية لها من الثلوج وقنابل إسرائيل، لا شيء يقطع سكون الشمس على أسطح البيوت والجبل وقطرات الندى التي أخذت في التسرب على باب المغارة وباب الضريح، لا شيء يقطع هذا السكون سوى قواطع حمار بومصلط الذي يهيئ مضغة جديدة من العشب أو التفاتة مفاجئة دفعًا لحشرة لزجة وعنيدة، أسطح البيوت عقب انقضاء الشتاء تستقبل بشائر الربيع فتخضرُّ بالعشب الذي يصبح حقلا للماعز، كل البيوت لها أصحاب لهم ماعز ترعى سطوحها إلا بومصلط الذي يرعى حماره بحرية على أي سطح دونما تذمر أو شكاية، لم يندهش بومصلط طوال حياته أو يبدي حيرته مثلما هو الآن يراقب فضل الشاهين في صمته الذي لا نهاية له، قد يخبط دماغه في بازلت الحائط الأسود، أو يتحدث مع حماره، وفي الليل يرفض الغياب أمام سطوة الخمر التي تطيح بالرؤوس داخل الحانة ويظل يسأل جميع من في الخمارة واحدًا وراء الآخر وكلا على حدة.

- أقطع رأسي ورأس حماري إن كنتم تفهمون شيئًا، لماذا سكتَ فضل!؟

- اذهب واسأله، لسنا بحاجة لمزيد من وجع الدماغ!

- صحيح لِمَ لا أفعلها!؟

أجاب بشير:

يا عم فضل، كيف تتصورهم خارج حدود الجبل، في البعيد البعيد حيث أتيتُ، هل ترضى أن أشهر سلاحي على أهلي

وتنحني قامتي من ثقل النياشين؟ أن أواصل سيري في هذه القذارة، هذا هو الأفق الوحيد المفتوح أمامي للبطولة يا عم، أن أغمس قلبي وساقيَّ في دم أهلي وأنا أقدّس الأحذية في أرجل تحمل رؤوسًا تسعى للأوسمة والنياشين ولا تشهر سلاحها إلا في وجه الأهل والأوطان.

- اسمع يا بني، نحن لا نفرّط فيمن يلجأ إلينا، لكن الأمر ليس بهذه البساطة.

- كما ترى يا بومصلط.

- ستعمل معي في وابور الطحين، الناس هنا تعبوا من الحرب وهم الآن يرغبون في الحياة.

- كيف والأعداء على أبوابنا!؟

- الحياة كالموت يا بني؛ كلاهما غامض، وكما أن الحياة تحتاج الصبر والمجالدة فكذلك الموت، لا يأتي دفعة واحدة، إنه كالجرب الذي يبدأ بحكة بسيطة لا تثير الاهتمام، والسنوات المتشابهة جزء من هذا الموت، كم مرة دخلوا حروبًا، فقدوا فيها دماءهم وأجزاء من أجسادهم، لقد تعبوا وسيركنون إلى الأيام وليكن ما يكون!!

- يكون الهلاك.

- وما جدوى أن يثقبهم الرصاص وتنفجر الأجسام على الصخور الساخنة صاخبة تزخر بالحرمان والوحشة، عمومًا سأنتظرك غدًا في الطاحونة.. إلى اللقاء.

بالداخل في الحانة كان الطقس دافئًا، الحرارة تنبعث من الأجساد التي أنضجها الخمر، دخان التبغ رابض كسحابة مصيرية تكلل الرؤوس، في الخارج ريح باردة حادة تطوّح قمم الصنوبر منبئة عن ليلٍ صعب، إنها سلطة الفصول في "حاريت" تمامًا كسلطة الخمر التي تطيح بالرؤوس داخل الحانة.

في الصباح كما اتفقا كان بشير في الطاحونة، بومصلط بجوار حماره، يبدو أنه ينتظر منذ وقتٍ طويل، صراخ الطاحونة، بوم.. بوم يطغى على كل شيء، الوجوه والخطى والأصوات، عندما يتحدث الواحد لا تبدو سوى الشفتين في حركات متعاكسة لأعلى ولأسفل، واللسان يتحرك بجنون داخل ذلك القوس الذي يتشكل من جديد في كل حركة لأعلى ولأسفل، جذبني بومصلط من تحت إبطي بعنف لم أعهده من قبل.

- تراك تسأل، أبعد كل هذه السنوات تعمل مع رجل مثلي في طاحونة!؟

لم ينتظر ردًا وكأنه يتوقع الصمت من بشير فواصل حديثه.

- إننا في كل ليلة نعود إلى البيت، نجد نسوة بانتظارنا، مطروحات، ندفع سراويلهن، نلقي نظرة على عريهن، ثم نصعد، كل ليلة، كل ليلة، وهذا ما يجعل أمنياتنا ضربًا من المستحيل، وهكذا الحياة، كلما تعمقت فيها احتقرت عمرك، والمحتفلون بها يحتفظون لأنفسهم بمسافة لائقة من الجهل المتعمد؛ ولذا تراهم سعداء منشغلين بها. ستقوم بأعمالي إذًا، تأخذ الحبوب للطاحونة وتعود بالطحين إلى البيوت،

وسيعطونك أجرًا، حبوبًا أو طحينًا وقليلا ما يعطونك النقود، فالنقود تعني مجهودهم دفعة واحدة، ولـذا يحرصـون عليـه ويتحسرون لو تسرب من أيديهم، أما أنـا فسـأعتني بـك وبالحمار وأعد الأجولة التي تنقل فيها الحبوب والطحين.

حتى متى!؟

- ستظل معي حتى يكون بمقدورك حمل السلاح في جـيش لـه أعداء واضحون كي لا تضطر لقتال أهلـك، مـع قنـاعتي الأكيدة بأنهم لن يتوقفوا عن قتل الأهل، فالحياة هي الشهامة والخسة في آنٍ معًا.

❀❀❀

في الصباح البارد كانت الشمس لا تتوقف عن التسلل بمـودة من بين الغيوم التي تزحم الأفق، على محيط الطاحونـة، سـور حجري من البازلت الأسود كأنه غير موجود إذ بإمكان المـاعز والقطط القفز من فوقه والدخول والخروج دونما عوائق، الأحجار نفسها متهدمة في أكثر من موضع ومنذ مدة بعيدة، تنمو حولهـا ومن خلالها أعواد العشب وكأنها امتداد طبيعي لما حولها، بالبوابة الصفيح المتصدعة أربعة حمير مربوطة بانتظار أصـحابها لتعـود بالطحين، أفصحها حمار بومصلط ذو الصوت المميـز، عنـدما يبدءون موجة نهيق متصاعدة، صوت الطاحونة، بـوم.. بـوم، ونهيق الحمير، هاء.. هاء، من أهم ما يشير لطقس الطاحونة الذي يتخذ من غبار الطحين الأبيض العالق بالوجوه وثنيات الثيـاب أفقًا، تتحرك فيه أقدام الداخلين والخارجين، بالإضافة إلى الخالـة

"رحومة" خلف إنائها الفخار تبيع للصغار الحب المحمص والفستق المملح وهي تهش في وجوههم وتدعو لهم بالشباب وطول العمر.

- هذا حمار بومصلط، من أنت؟

- أنا أعمل معه منذ الأمس فقط.

- أنت بشير الغريب إذًا.

- لم يقلها بومصلط، لماذا قلتها أنت يا بوعسلي!؟ بشير الغريب!! لعنة جديدة لم تكن بالحسبان.

في البعيد وسط الدائرة الحجرية التي تحيط بدائرة خضراء أكثر تحديدًا، في البعيد شجرة الصنوبر ساكنة، لا هواء يحركها، بينما على واجهة المبنى المقابل لافتة، المبنى متهالك واللافتة تنبض بالحيوية، تحمل شعار الحزب الواحد الوحيد الأوحد، في يمينها صورة الزعيم الصمد، رب الأبدية السرمد، ملهم السنوات العظيمة بالانتصارات والمجد الفريد الذي لا مثيل له في تاريخ هذه البلاد ذات الحضارة الممتدة على مساحة أكثر من خمسة آلاف عام، كل هذا بينما أنا بشير الغريب يا بوعسلي.

- كيف تعرفت عليه؟

- في الحانة.

- هكذا دائمًا يصطاد بومصلط زبائنه، يبدو أنك رجل طيب.

حاول بوعسلي أن يمدَّ إلى بشير طرفًا من الألفة عبر ابتسامة وليدة على طرفي شفتيه شجعته على مواصلة الحديث.

- لماذا سكت عم فضل بوعسلي؟

انفرط تمامًا، انسحب مشروع الألفة، سكتَ برهة وتسمرتْ عينا بشير في ملامحه.

- قد لا أفهم السبب بالضبط؛ لكنني توقعت ذلك منذ فترة طويلة.

- هل سكَتَ قبل هذه المرة؟

- أبدًا، إنها المرة الأولى.

- أما حاولتم إخراجه من هذا السكات؟

- إن إنسانًا كفضل من المستحيل أن يكون إلا كما يريد، ولا يمكن زحزحته عما يقصد؛ ويخيل إليّ أحيانا أنه ليس إلا عزيمة مجردة، طاقة من الإرادة لا تخبو مهما تقدم به الزمن وانحفرت في وجهه الأخاديد؛ لكن لماذا أنت مهتم بأمره؟

- لا أعرف! أنا أعمل عند بومصلط مقابل الأكل والنوم.

لم يكن بشير مرتاحًا تمامًا لعقاب بوعسلي، وما إن فرغ الطحان من ربط الكيس حتى رجاه معاونته في وضعه على ظهر الحمار وعبرا بوابة الطاحونة، في الطريق الرئيسي باتجاه البيوت، بوم.. بوم أخذت تخفت رويدًا رويدًا كلما ابتعدا عن الطاحونة بينما صوت حوافر الحمار، تب.. تب، بدأت تأخذ مكانها بدلا من بوم.. بوم بالتدريج.

قالت هند:

إن عقاب بوعسلي، مزيد بوسلطان، بوعلي شهاب رفقة جدّي فضل منذ فترة التروح وتأسيس حاريت الجديدة مرورًا بسنوات

الثورة ضد الاحتلال وحتى الآن، بينهم كنــــز السـنوات الـتي يقدسها فضل.

قال بشير:

ها هو أحدهم يا هند يقتحمني بـ"الغريب" ما قولـك إذًا؟ وكيف ستسير الأمور معي بينكم إذا تعمقـت هـذه الصـفة الجديدة؟ ما العمل؟

قالت هند:

ها هو كتلة الصمت التي تتسرب كالضوء والرعد في محـيط الضريح جوار عمّار، ها هو فضل، كتلة الصمت الـتي كانـت ذات يوم تنفجر بالحياة، هو ذا فضل الشاهين الذي ينتمي لصلابة هذا البازلت ولا يمكن استحضاره إلا امتـدادًا لظـلال الـبُطم والزيتون التي كثيرًا ما أودعها أسراره، تمده بالزيت والأمـان في ليالي المقاومة النكدة، تحتفظ في تربتها تحت ظلالهـا بالأسـرار، دانات ومدافع ينخر فيها الصدأ في العمق وتؤاخيها الجذور منـذ زمان الثورة، عندما عثر على إحداها بومعزة شـلهوب انتشـر الخبر، حضرت السلطات على الفور، حاصرت الجبل وأخـذت في استجواب أهل حاريت أملا في العثور على المزيد وتجريد الجبل من السلاح؛ بينما فضلٌ هناك أعلى الجبل لا يـومئ إلى أحـد، بوسالم حارس النبع والمغارة تهلل وجهه – الذي يتأرجح الآن في الحلقة المتدلية فوق النبع – تهلل وهو يغلّظ الإيمان ويقسم بروحه لكل من يراه بأنها أمجاد فضل وآية من بطولاته ضد الفرنسـيس والأتراك، وأن هناك الكثير من الآيات سيظهر في قادم الأيام، ولمّا

لم يستجب لحماسه أحد انزوى بوسالم في ظلال المغارة كديك خسر جولة في المصارعة، خجلا من نظرات الآخرين، وحين رأى عسكر السلطان يحملون المدفع منطلقين خارج الجبل تكوَّم غامسًا رأسه بين ركبتيه يبكي بصوت هستيري حتى انسحب النهار تاركًا الجبل يعج في الظلام الهلامي.

❀❀❀

في غرب السماء يتمركز القمر دائرة شفافة صوب وجه فضل الشاهين متوحدًا في الهالة الخرافية التي تخصه دون بقية من في الجبل، فيبدو كإله أسطوري انزاحت عنه أنقاض مدينته العتيقة بناسها وبناياتها، هالة خاشعة جوار عمّار الذي يظهر في أنضج الحالات كقبة حتمية تخترق الأزل مشيرة لذلك الشيخ الفاتن فوق فرسه على أرض صفين وهو يصيح "عائذ بالله من فتنة" فيطمئن القائد ويقرُّ فؤاده في مواجهة زلزال الخوارج وشهوة الطامحين في المال والسلطان، عائذ بالله من فتنة، وأذنه تتدلى ناضحةً بالدم إثر ضربة طائشة شقت أذنه وهو يمخض الصفوف عائذًا بالله من فتنة.

- لماذا تسكت يا فضل!؟

- يا حبيبي، أخيرًا رددتَ عليَّ!!

- يا صاح، أخيرًا تسمعني، تسمع قلبي، لماذا سكتَّ كل هذه المدة؟

- إن حاريت تغلي والناس منشغلون واستبد بي اليأس.

- كيف تسكتُ وتتركهم للشيطان؟ إنهم كالفراش يتساقطون على الضوء، مدفوعين بالغرائز، أرهف السمع يا بن الشاهين فتحت

القشرة الرقيقة الساكنة زغب لزج ومعروق يصخب بالحياة.

- ما عدتُ يا سيدي، فأطرافي قد يبست من البحث عن الحياة في هذا المحيط الغامض والمفتون بالعابرين، يدي قد يبست، لم تعد تطاوعني.

- وقلبك يا صاح!؟

- آه يا نور الجنة الذي تسرب فيضه إلى الأرض، يا شيخي الحبيب، في قلبي زلزلة لا أقوى على احتمالها، ولا يحملني الكلام فأصبحت هائمًا في رحابك يا بن سمية.

- لا عليك يا بن الشاهين، فقط كن دائمًا محتشدا للآتى.

التأبين

"يا ريم ياللي بأول الورادة
محبة جديدة واخرقت بفؤادي
يا محتشم يا زين يا نداوى
إن كان قصدك الجروح تداوي
جرح الهوى ما ينعصب بمراس"

قاربت الشمس على الزوال وروح الجثة المعلقة جاثمة على الجبل، البيوت القديمة في حضن الجبل يجللها سواد البازلت وصمت الذعر من الآتي في حين سكنت العصافير واليمام قمم الأشجار وأخذ الناس في الانصراف إلى ظلمة الدور التي تسربت إلى كل شيء؛ بينما رابط البعض منهم حول الجثة في رحاب المغارة والنبع وقد أخذوا يشعلون النار طلبًا للألفة والدفء، في هذه الأثناء كانت خطوات بومصلط تستقر في براح الحانة التي يغمرها دخان التبغ المتصاعد مع رائحة العرق الطازجة في جو تتخلله إضاءة خافتة، تكفي بالكاد للتعرف على وجوه الجالسين؛ الذين اقترب بومصلط منهم واحدًا واحدًا، يتوقف عند كلٍ منهم ذاكرًا إياه بالاسم بصوتٍ واضح، والخمارة إلى حدٍ بعيد تشبه

كهفًا سقفه خفيض، يترك آثارًا من غبارٍ أسود لزج فوق العمائم الناصعة، اجتاز بومصلط صفين من المصاطب المتواجهة باتجاه الساقي والجميع يرقبون، لما وصل نهاية الممر واجه الساقي قائلا:

- الليلة سنشرب كل ما عندكم من عرق، سيشرب الجميع في وداع روح الشهيد بوسالم العالية.

كل من يعرف بومصلط ألف مثل هذه الطرافة إلا أنهم وعند هذا الحد ذهلوا وغرقوا في الصمت وخصوصًا أن صورة الجثة التي تتأرجح عاريةً في البهو أمام المغارة لا تفارق أذهانهم.

- هذه الليلة الأولى لانسحاب أحد أصدقائي، إنهم هكذا ينسحبون في لحظات تليق بهم ويتركونني وحيدًا للجنون بينكم أيها الأنجاس.

صاح الساقي:

- إننا في أول الليل لم نزل، وكفاك سخرية يا بومصلط، أولى بك أن تفكر.. كيف سنواري الجثة التي تتأرجح على باب المغارة.

- لا أحد سوى فضل يستطيع تقرير أمرها، ثم أنها جثة على أية حال وماذا يضيرها لو بقيت معلقة للأبد!؟

استدار بومصلط وأخذ مكانه على مصطبة منفردة أمامه طاولة، أخذ الساقي يرصُّ فوقها قناني العرق والأكواب وثمار التفاح، لم تمر لحظة حتى فاجأ بومصلط كل من بالحانة، عقدت الدهشة ملامحهم، واتسعت عيونهم حين صعد فوق المصطبة وأزاح قناني العرق والأكواب برجله ثم صاح بنبرات متقطعة لم يألفها أحد من قبل:

- الليلة أراني مدفوعًا للخطابة فيكم أيها الملاعين، وحتى لا تقولوا إن الخمرة أطاحت بعقله ها أنا قد رفستها برجلي، كلكم أنجاس وقد لا أتمكن من توديع بوسالم إذا خرجت جنازته غدًا أو بعد غد أو في أي يومٍ قادم، كلكم تستطيعون إلقاء الخطب والمراثي على تابوته قبل الدفن، أما أنا فسأودِّع الجثة هنا الآن هذه الليلة.

أخرج من جيب سرواله ورقة مطوية أخذ يفردها ويقرأ منها:

- ها هي شهادتي، اسمعوا يا أحفاد الشياطين، ما اشبهكم بالجرذان التي تلتهم كل شيء في الظلام، إنكم تفسدون كل شيء في سبيل كروشكم المنتفخة حتى تستجمعوا قوتكم للقفز فوق نسائكم خلف الأبواب المغلقة، إن فضل الشاهين وعقاب بوعسلي ومزيد بوسلطان وبوعلي شهاب وبوسالم فرهود وغيرهم ممن نأوا بأنفسهم وتركوا هذه الوليمة القذرة قد ماتوا غيظًا منكم، فبعد كل هذه السنوات من المرارة والكفاح والفرار من الموت حتى تتحرروا وها أنتم تسلمون حاريت مرة أخرى، ها أنتم تهجرون بيوتكم الحجرية وتشيِّدون أخرى من الرمل والإسمنت، تهجرون النبع وتتحولون إلى مياه الخزانات تضخ فوق رؤوسكم وأنتم نائمون يتصاعد ضراطكم، أنتم تعلمون أن هذه الحياة لا تناسبنا في الجبل، فمازلنا في مرمى الأعداء وها أنتم ترون نيران مدافعهم وطائراتهم وهي تتجه لأهدافها الجديدة في العمق، إننا نعيش هدنة غير صريحة، وأنتم تهدرون طاقاتنا، وقد يئس فضل ولم يستطع الموت فلزم السكات وظلت رفقته

القديمة من أيام الثوار ملازمين لبيوتهم؛ بينما أنتم ترتعون كالصراصير، تغيِّرون ثيابكم وجلودكم ونساءكم وهيئة بيوتكم، وأنا لا يعنيني أمركم، ولتستقر كروشكم في زمهرير سقر يا أحفاد الأبالسة، بوسالم لم يطق الصمت كفضل وليس له بيت ليلزمه فعلّق نفسه على باب المغارة وأنتم كل ما يشغلكم إخفاء جثته، إخفاء جريمتكم حتى تستطيعون التهام المزيد من الطعام والعرق والنساء، تعرفون أن بوسالم كان صديقي وأنا لن أتكلم عما تعرفون من حياته، سأحكي لكم بعض أحلامه التي كان يقصُّها عليَّ، فمنذ رحيل الأعداء القدامى وهو يحلم حلمًا وحيدًا يتكرر في كثير من الليالي، يحلم أنه وقع أسر الأعداء الجدد وأنه تزوج عندهم وأصبح له بيت وزوجة منهم وأنجب أولادًا حتى أنه نسي مسألة الأسر وأصبح كواحد منهم، وكان يأتيني مذعورًا بعد كل حلم وكنت دائمًا أنصحه بالزواج وكان يرفض، وعلى كلٍ فلن أطيل عليكم فهنيئًا لكم العرق وجثة بوسالم فرهود.

نزل بومصلط من فوق المصطبة والعرق ينشع من ثنايا ملابسه حول الرقبة والكتفين، طلب قنينة من العرق في حين بدأ الجميع ينصرفون واحدًا وراء الآخر، وبدت الخمارة هادئة إلا من أزيز الفوانيس المعلقة في الحوائط، لم يبق في الحانة سوى الساقي وبومصلط الذي باغت بشير:

– هل عرفتْ قدماك طريق الخمر أيها الصبي؟

– جئتُ بعد انتشار خبر ثورتك في الحانة.

– أخشى أن تتخذني قدوةً في هذا الأمر؛ لكن لا بأس، هيا بنا.

***

الحياة عاطلة تمامًا في محيط الجبل، الشمس تقترب من منتصف قوس السماء وهي تقاوم بعض السحب، السكينة تعمُّ البيوت والضريح والمحتشدين جوار النبع والمغارة، بينما كانت الجثة أسفل الدرجات الست والعشرين تتأرجح في بطء ورتابة وقد شبَّت فيها كائنات الموت فانتفخت قليلا حتى أوشك الحبل على الانقطاع، من النادر أن تسمع صوتًا أو حتى همسًا، يبدو أنهم قد استسلموا لخدر العقاب الجماعي حتى سالمان المغوش الذي حذرهم مرارًا من عقاب السلطات قد اختفى، و لم تبد السلطات أي اهتمام بأمر الجثة.

في البداية وصل بشير ثم تبعته هند وجدها فضل الذي هبط الدرج في ثبات وعيناه مثبتتان على شيء لا يراه أحد سواه. ظل يهبط حتى صار في مواجهة الجثة المدلاة، صعد بعض النتوءات التي على باب المغارة، وضع رأسه بين فخذي بوسالم وظلت رأسه تتسلل بين الفخذين حتى استقرت خصيتا بوسالم على رأسه، صعد قليلا حتى تدلت الرجلان على صدره ثم أخذ يفك الحبل من حول الرقبة بإحدى يديه بينما الأخرى تسند الجثة حتى لا تسقط، فكَّ فضل العقدة الأخيرة، أخرجها من لحم الرقبة، انفك الحبل وأخذ يتأرجح حرًا بلا جثة ثم هبط فضل النتوءات في حذر، على الرغم من سنواته التي قاربت التسعين إلا أنه هبط بمهارة ورشاقة أذهلت الجميع، صعد الدرجات وبوسالم على

كتفيه تتدلى رجلاه، توجه صوب المدّرج وتبعه أهــل حاريــت صامتين، كان الموكب يتحرك يتقدمه فضل حاملا الجثــة فــوق كتفيه وساندًا إياها بكلتا يديه وخلفه مباشــرةً ســار عقــاب بوعسلي ومزيد بوسلطان وبوعلي شهاب وهند حاملــة عبــاءة جدها، عقب الوصول إلى المدرج أخذ الجميع أماكنهم في حــين وضع فضل الجثة في منتصف الدائرة الكبيرة التي يحيطها المــدرج. وضعها فوق المصطبة المشيَّدة خصيصًا لتشييع الموتى بعد مراســم التوديع. ناولته هند العباءة، لفَّ فضل الجثة بها ثم انصرف هادئــا صوب الضريح الرابض على قمة التلة التي هي لعمّــار، ولتبــدأ مراسم التأبين والوداع.

في دائرة كاملة صوَّب عقاب بوعســلي بصــره في وجــوه الجالسين على المدرجات ثم أخذ في إلقاء شهادته.

- ربما كانت هذه المرة الأولى التي نجرِّب فيها موتًا كهذا، فكثيرًا ما ودعنا أصدقاءنا في جوف الصحراء الواسع دون أن نتمكن حتى من النظر إليهم، لقد عاش بوسالم فرهود بيننا وحيدًا، لا زوجة، لا أولاد وأجدني مضطرًا لقول ما لا يعرفه الكــثيرون منكم، لقد عاش بوسالم سنوات المقاومة متخفيًا كبائع جوال له لحية طويلة كثيفة مهمل الثياب يبيع اللعب من طــائرات ومراكب وبعُران وعصافير لأطفالنا، سنوات طويلة يتجول في قرى الجبل ولم يكتشف الفرنسيس سره أبدًا، لقــد كانــت خطط المستعمرين وأخبار أهلنا في القــرى المحاصــرة تحــت الاحتلال تأتينا في أماكننا البعيــدة علــى أطــراف الجبــل وخصوصًا في الفترة التي شدد فيها الجنرال ميشو الحصار وزمَّ

الخناق على القرى فكانت كالجزر المعزولة، و لم تعد نسوتنا قادرات على إطعام صغارنا تحت وطأة الحصار غير العكُّوب والهندباء وكلكم سمعتم عن أيام العكُّوب، كان بوسالم يكتب الرسائل ويطويها داخل اللعب التي يبيعها للأطفال حاملة كل الأخبار، وكان المحتلون يعلمون أننا نعرف كل شيء عنهم في القرى المحاصرة؛ لكنهم لم يهتدوا أبدًا لبوسالم، وها هو اليوم يرحل وحيدًا وحزينًا، كأنه يعترض بالطريقة الوحيدة والأخيرة التي يقدر عليها، يعترض على مسلك حياتكم وأنتم تدفعوننا للخطر بعد الموافقة على تحويل النبع والمغارة والضريح كمزارات سياحية وإمداد حاريت بالمياه عن طريق الخزانات لبيوتكم الحديثة الهشة بواسطة الأنابيب وإهمال مياه النبع الذي ربما يجف أو يغيض الماء فيه، إن موت بوسالم بهذه الطريقة صرخة تحذير فصيحة لكم جميعًا، ونحن ومن تبقى من جيلنا قد صرنا شيوخًا لا نملك من أمرنا أو أمركم شيئًا، فعسى أن تفيقوا وترجعوا عما أنتم عازمون عليه، ووداعًا يا صاحبي وإلى الملتقى.

كانت الدموع تخنق صوت بوعسلي في كلماته الأخيرة، توجه للجثة وضع قُبلة فوق العباءة التي تلفها، كانت الدموع والصمت يغسلان طقس الغروب القاني الذي حاصر الجميع حين بدأ بوعلي شهاب يقبض على الكلمات ويفضي بشهادته.

- أيها الأخوة، نحن جميعًا مذنبون في حق هذا الرجل، وستظل جثته المتدلية على باب المغارة تطارد أرواحنا، لن تكف عن إدانتنا مادمنا نسير في طريق يزعج روح صاحبها، ثم غيَّر حديثه فجأة.

- هل كان بوسالم مدينًا لأحدٍ منكم؟ من كان له دين عند بوسالم فأنا كفيله وليأخذه مني، ولتجد روحه الراحة التي فقدها معنا وليسعد بحياته الجديدة.

قبل أن يفرغ بوعلي شهاب كان بشير وبومصلط قد وصلا حاملين التابوت فوق الحمار، تقدَّما حتى أصبحا على مقربة من الجثة، أنزلا التابوت، فتحه بومصلط، أشار بحمل الجثة ووضعها في التابوت، أخذ بشير الحمار وانصرف في حين حملوا الجثة وتوجهوا للمقابر خارج تلة عمّار، بينما كانت الشمس توشك على السقوط في الجهة الأخرى ومحيط حاريت يتعجل الليل ليختبئ فيه.

الفراشة

"لا كتب ورق وارسل لك

يا للي مفارق خِلك

لا كتب ورق يا خِشِف

يا دمع عيني ما نِشِف

خايف الحكاية تنكشف

والناس تركب شِلك"

قال بشير:

كنافذةَ في الروح تعلو، تمنح الجسد قداسة، أو كقطة تكرمش فروتها وتفرُّ، من مطر، من صيادين، من ليلٍ بهيم، كنت أرقبـــها، الجسد انخرط خرطتين تتناغمان، تأتي إحداهما بحركة فترد عليها الأخرى، الجزء العلوي يبدأ من نحول الخصر وحتى علاقة الشـــعر بالليل، ذراعاها ممتدان باستقامة يأخذ الكفُّ في كلٍ منهما المعنى الأساسي، يظل يندفع في جهات جديدة مانحًا كـــل إمكاناتـــه للجسد حتى تتشكل موجة تامة وقد أخذت ملمحهـــا الأخـــير فتتحرك الكف خارج نطاق السابق من الحركات لتتوج ما فات من معاناة.

الرأس بها العينان واسعتان، تبدوان كرسولين حين تـدقان في ليل الغرفة، أو حين تذوبان في حركة جماعية مع الرأس والذراعين أو بشكلٍ كلي مع حركة الجسد المندفع بنشوة خلاقة تفتح لنفسها طريقًا في الحاضرين، من الأسفل القدم اليسرى معقوفة كمنجل، يمثل المشط منها مرتكزًا مع الأرض والكعب للأعلى، يدور المشط وفق انسجامٍ خاص، فهو على نحو استثنائي يقوم في كل حركة بعلاقة متوازنة بين الجسد ككل وبين أرض الغرفة التي يعلوها بساط أحمر تقفز النقوش منه بامتداد جهاته الأربعة متدرجة بانسيابية إلى المنتصف حيث الطائر الخرافي يأخذ بُعدًا جديدًا كلما تغيرت زاوية التقاء المشط بالأرض، والقدم اليمنى غالبًا ما تلاصق الأرض في ألفة وحنين قلما تبرحها حتى وإن انتقلت مكونة دائرة إلا قليلا.

كفراشة وقد تحررت من غريزة الاندفاع إلى النار كانت ترقص، من العمر سنوات تسع تنطق في علاقة الجديلة وانسدالها الحر فوق ثنيات الثوب الأبيض من الخلف لو تستدير، الكف تصطك بالكف، صفقات تطرد السكون والأشباح العتيقة العالقة بجو الغرفة والفضاء في الخارج.

متواليات اليوم ومنذ الصباح كانت تنبئ بالكثير من التناقضات، كان ينبغي الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى المتحف، من الجبل إلى المتحف طريق مُجْهِد، بينما قد صحونا على صوت اصطكاك النوافذ وتهشم الأشجار بالخارج، صفير الرياح يندفع من بين شفرات الصخر البازلتي المبعثر، كتل ضخمة تنتهي لتبدأ أخرى شاملة أبعادًا لا يحدها البصر، اختفت الشمس طيلة اليوم

وكذلك اليمام المواطن في محيط الضريح على قمة الجبل، كانت التناقضات أبرز ما يمكن ملاحظته هذا اليوم، في الليل هدأ كل شيء، ما زالت الكف تصفق الكف.

- لأكتب ورق يا خِشِفْ

يا دمع عيني ما نِشِفْ

خايف الحكاية تُنكشفْ

والناس تركب شِلّك.

بعد قليل هدأ كل شيء، الرقص وصوت الأكف وحروف الأغنية فرغ مدُّها، والفراشة المتحررة من غريزتها كمنت في ركن خارج الدائرة، البشرة صفراء تميل للزرقة وقد عركها تعاقب الفصول.

- طرودي مات، وقد سبقته زوجته من شهور تسعة.

- كان لا بد أن يصمد بعض الوقت!

- المشكلة في الأولاد!

- اشرب يا رجل.

مهدي لمّا يتكلم تركب صوته الجهامة، شيء من الجسارة، حتى وإن كان يقدِّم لك كوبًا من الماء، لديه الكثير مما يستحق الانتباه خاصة لو يتطرق للمستقبل بعد ما يكون قد قدَّم الكثير من تفصيلات الواقع.

- دهسته سيارة في زحام المدينة.

- هكذا دائمًا، اشرب يا رجل.

الجلسة أقرب ما تكون لدائرة غير منتظمة، مهدي على مقربة من الباب لديه الكثير من القول الصائب، إلا أنه لا يعثر عليه وقتما يريد، حين يكون من الضروري أن يتكلم يتبعثر وينفرط، فيبدو وكأنه لا موضوع محدد يقصده؛ لذا كان الكثيرون ممن يعرفونه للمرة الأولى يعتقدون أنه اضطر لسببٍ ما أن يفتح فمه ويشغل مساحة يرى أنها لا ينبغي أن تبقى فارغةً، والحديث عن طرودي والموت بدأ هامشيًا بينما كانت الرقصة وإيقاع الأكف يضمّان المكان، رويدًا، رويدًا أخذ ينمو وكأن علاقة عكسية محكمة تربط بينهما، انسحبت الفراشة الشاهدة بسنواتها التسع، كفها على خدها تنظر حركاتها المنقضية بينما رأسها ما زال مشدودًا للراقصة، كحركة تشبه الصدى، أو استمرار لما يمكن أن يكون قصورًا ذاتيًا فيه ما يغري بالمتابعة الأكثر إمتاعًا.

- في المدى البعيد للمعنى ليس ممكنًا أن تجلس كما تريد وتقول ها أنا قد تحررت!

- اشرب يا رجل.

- طرودي كان يريد الحياة؛ ليس حبًا فيها؛ بل لاعتقاده بأن وجوده كان ضروريًا مع صغاره أو على الأقل يسقط بينهم مانحًا إياهم النظرة الأخيرة.

- في هذه المسألة ثمة ما يغري بالمتابعة؛ لكن إلى أين!؟

قال بشير:

مهدي بوشبلي الصالح وأنا نتفق في أشياء كثيرة، فكلانا يمتلك

تلك المقدرة على إزاحة القناعات الموروثة عن مواضعها المستقرة سلفًا، سواء بالعرف أم بالمنطق، وأختلف معه في رؤيتي بإمكانية الوصول إلى الأفضل وأن الأشياء يمكن أن تصير إلى الأحسن بينما لا يتوقع مهدي أي نتيجة أفضل من الواقع والتاريخ؛ بل ربما يكون الجهل أفضل الحلول لمواجهة قضايا الحياة؛ لذا فهو لا يمتنع عن الشرب إلا حين تنفذ كل الأشياء، الخمر والوقت وقدرة الحضور على المتابعة، في الشرب يمكنك أن تقنع به وهو يرى الحدود بين الأشياء في حالة إزاحة مستمرة، وأنه لا قناعة عاصمة يمكن الوثوق بها حتى النهاية وينخرط في الأسئلة المستحيلة.

- هل من الضروري أن يحيا الجميع بقناعات واحدة!؟

- افرض!!

و لِمَ الغيظ إذا أعرضت عنك؟

- لماذا جئت إلى هنا؟

صباحًا خرج الجميع من بيوتهم المتناثرة، تجمعات في غاية الانتظام على محيط مستطيل منبعج للداخل عند الوسط، هذه هي حاريت كل صباح، طبيعة فرضها الجبل والبازلت النامي من حولهم والذي أخضع تواجدهم لمشيئته، خرجوا كأسراب من النمل ستعرف بعد قليل أنها التقت مصادفةً كأنها استشعرت جميعًا وفي نفس الوقت حبة قمح على هامش البيدر، وفي القمة أعلى الجبل يستقر ضريح عمّار بن ياسر كأنه مركز الحياة، يندفعون منه لاتجاهات شتى وهم يحملونه داخلهم حتى يعودوا لمحيطة ثانيةً، يحتكمون إليه في أفراحهم في حروبهم وموتهم المتوقع أو المفاجئ،

هناك في القمة حيث يحلّق سرب اليمام منطلقًا صوب الأفق، تجاه قرص الشمس، يعشش ويفرخ أجيالا متعاقبة من اليمام تقيم هناك، لا أحد يذكر أنه رأى المكان خاليًا منها ذات يوم، ربما الكثيرون منهم قد ضبطوا إيقاع حياتهم على حركتها في أوقات اليوم المتباينة، الضريح على قمة الجبل في الغرب، في الوسط المغارة، هذه هي حاريت التي لا يأتي ذكرها منفصلا عن المغارة وحارسها الأسطوري الذي عاش ورحل كما يليق بمناضل حرس حاريت ومغارتها طوال فترة الحصار أيام احتلال الفرنسيس، بوسالم الذي لم يبرح مدخل المغارة جهة اليسار طوال سنواته الأخيرة وقبل رحيله العاصف، بوسالم فرهود يشعرك بأنه يصلي لو استطرد في الحديث عن تفاصيل المغارة الموغلة في الماضي حتى يصل إلى تخميناته بشأن تكونها يكون قد وصل ذروة الابتهال حتى أنك تنشغل بمتابعة انفعالاته واحتشاده على الرغم من حديثه عن الأحداث والرجال الذين مروا عليها.

يقول بوسالم:

- تصورا! هذه المغارة كانت منزلا للملائكة منذ آلاف السنين، اختبأت فيها ملائكة الأرض التي تحمل هذا الجبل عندما ثار البركان وظلت هذه الأرض تغلي مئات السنين، كانت المغارة ملاذها حتى هدأ البركان واستقر الجبل وخرجت حاريت، فعادت الملائكة تحمل الجبل تاركة هذا التجويف إشارة إلى تلك الأحداث.

- يا عم بوسالم من قال لك هذا؟

- أنا أعرف كل شيء عن المغارة، هي موطن الملائكة وسرها المقدس، ومن يلجأ إليها يجد الأمان، أما سمعت عن احتماء الثوار بها أيام الثورة على الأتراك والفرنسيس!؟

- موعد جنازة طرودي اقترب.

- هيا بنا.

الموكب طويل، يبدو من قمة الجبل كسرب متنوع في الكثافة والانقطاع، يطوّق البلدة في خطٍ مأساوي يتناقل ببطء صوب كارثة، في العودة لم يعد أحد، هربوا في اتجاهات خارج ما اعتادوا عليه من زمان ومكان، فقد رحل واحد منهم ولن يعود أبدًا، مساءً لم يلتق أحدًا بأحد، آثروا معايشة الأحزان منفردين وكأنه اتفاق سري على مؤاخاة الوحدة هذه الليلة.

- لماذا جئتَ إلى هنا؟

❀❀❀

الجبل كأسلوب حياة بما يفرضه من طبيعة لها منطقها الحتمي، وكما اختاره فضل الشاهين موطنًا منذ ما يزيد على سبعين عامًا مضت يبدو الآن وقد امتزج بناسه كجبلٍ يحمل رسالة مقدسة، صحيح أن فضل لم يكن يتوقع كل هذا التاريخ من المقاومة والحرب ضد الأجانب من المحتلين والغزاة؛ لكن الانتصار للإنسان دائمًا — وكما يقول فضل — كان يفضي لمسارات أعظم نبلا، كان عليه أن ينطلق في السهل، في الخلاء خارج نطاق ما ألف من طرق وبنايات أثقلتها خطى البشر المتلاحقة، أدرك بعدها أنه كلما خرج عن سياق المحكم والمعقد من علاقات بشرية متوارثة

كلما أصبح أكثر قدرةً وإحساسًا بالحياة، كان عليـــه أن يخـــرج للجبل؛ ليس لكل ما تقدم فقط؛ بل لأن أمه هلكت هذه المـــرة بعد هجمة للبدو، وككل هجوم لهم تعمُّ الفوضـــى والخـــوف، يضطرب الجميع وكل ما يشغلهم البحث عن مكان يحتمون فيـــه بينما يتصرف البدو كما يشاءون، يخربون الممتلكـــات وتملـــك الحياة، ثم ينصرفون والناس في صمتٍ خجل، يتحاشون الخـــوض في الحديث عن الهجوم غير أن فضلٍ هذه المرة كان أكثر وعيًـــا وتصميمًا، لقد شاهد بنفسه كل ما حدث وحاول بكل ما فيه أن يصدهم قبل أن تصك رأسه مطرقة أحدهم ويغيب عن الـــوعي، يومًا، يومين، ثلاثة أيام ويعود المكان كما كان، أمه كانـــت في عداد الهالكين هذه المرة ولذا قرر الرحيل.

الآن وبعد مرور أكثر من سبعين عامًا عاشها وفق ما أراد من وجوه ومنطق في هذا الجبل، الآن آثر فضل الرحيل مرةً أخـــرى؛ ليس صوب مكانٍ آخر لكنه الصمت بعيـــدًا بجـــوار الضـــريح، مستقلا لا يرغبُ في شيء سوى تنظيف إناء الفخار المخـــروط كل صباح والنـــزول للنبع في مدخل المغارة لتجديـــد المـــاء في الإناء على الحامل بجوار عمّار بن ياســـر، وفي المقابـــل ســـرت شائعات كثيرة في الجبل عن سبب صمته ورفضه الحـــديث مـــع الناس، يمكن إجمالها في التالي:

إن فضل الشاهين والذي قارب التسعين الآن وعندما تكســـو الظلمة كل شيء يغيب عن الضريح ولا يعود إلا مع ضوء اليـــوم الجديد، وربما – وكما يقولون – يقضي الليل بين أنقاض منازل أهله القديمة التي دمرها البدو، ويقال أيضًا إنه قبل صمته المفاجئ

مباشرةً شوهد مع رجلٍ غريب، ظلا يتحدثان على انفراد بجـوار عمّار حتى نزل الظلام وسارا معًا جهة الغرب وبعدها أقلع فضل عن الكلام و لم يعد يتحدث مع أحد، يقال أخـيرًا بـأن قـرار السلطات في العاصمة بإلغاء النبع وتحويـل المغـارة إلى مـزار للسائحين والوافدين على الجبل وتوصيل منازل الجبل بمياه أقرب مدينة عن طريق خزانات ضخمة ستقام فـوق الجبـل بجـوار الضريح؛ وعلى الرغم من كون حديث كهذا مجرد إشاعة؛ إذ لم يصدر تصريح أكيد عن أحد من المسئولين بذلك، إلا أنه وكمـا يؤكد عقاب بوعسلي ومزيد بوسلطان وبوعلي شهاب أن ذلك هو السبب الحقيقي وراء سكوت فضل، وخاصةً أن أهل حاريت أبدوا ارتياحًا لمثل هذه الأقاويل، وحده بومصلط سليم هو الذي يغلظ الإيمان برأس جدته زهرة التي لم يرها أحد، وحده بومصلط الذي يعتقد أن ظهور البدو على هامش الجبل يحـدون إبلـهم ويسوقون أغنامهم للرعي في سفوح التلال هو السـبب الـيقين لإقلاع فضل الشاهين عن الكلام ويكرر القسم بذلك قائلا:

– أليسوا هم الذين قتلوا أمه وشردوا أهله منذ سبعين سنة!؟

عقاب بوعسلي ومزيد بوسلطان وبوعلي شهاب وبومصـلط سليم مهباج هم رفقة فضل الباقية، اشتركوا معًا في طرد المحـتلين عن الجبل، سنوات طويلة ينصبون الكمائن، يواجهـون الليـالي الباردة الخطرة في المغارات أو في أحضان الجرانيت منشغلين بتطهير الجبل من الغزاة، فضل ينطلق للبلاد البعيدة، يجلب السلاح يوزعه على الثوار، قد يغيب بالشهور الطـوال في سـفر عـبر حـدود متواصلة، وفي كل مرة يطول غيابه حتى ينقطع الرجاء من عودتـه

إلا أنه يظهر ثانيةً مانحًا إياهم السلاح والجسارة والأمـل، وكـان الغزاة يعرفون ذلك، يعرفون أن فضل هـو رأس الثـورة لـو تم اصطياده لخمدت المقاومة، وعلى الرغم من أنه كان هدفًا رئيسـيًا طالما خططوا لاصطياده إلا أنه لم يسقط أبدًا.

- أعتقد أنني الوحيد الذي يفهم معنى سكوت فضل!

هكذا يصرح مهدي بوشبلي الصالح، لكنه لا يبـوح عـادةً أكثر من ذلك ثم يباغتني مباشرةً:

- لماذا جئت إلى هنا!؟

ودائمًا ما كان الصمت يحطُّ على المكان عقب كل سـؤال، ولا أجد رغبة في التواصل مع سؤاله إلا أنني لا أعرف ما الـذي دفعني هذه المرة أن أحسم هذا السؤال الذي صار تكراره إهانـة بالغة ونافذة كوخزة خنجر في الصميم.

- إنهم يريدون إرسالي للصحراء بحق المواطنة المقـدس، وعلـيَّ أن أصغي إلى حفنة من المراهقين وأعبدهم، فأنا وحـشٌ وعلـيهم تهذيبـي، أن يعلموني كيف أحيا لأقـدس وطـني، أن أشـم رائحتهم فأسكن جلدي.

- اشرب يا رجل!! أنت وفضل لم يعد أمامكم سوى الانسحاب.

- لا أفهم ما تعنيه بالضبط!!

- غدًا قد تفهم، اشرب يا رجل.

يبدو أن الأرض كانت تغلي هنا منذ سنوات سحيقة في القـدم؛ وبينما قشرتها في ذروة فورانها توقف كل شيء بغتة فظلـت هكـذا منظرًا أبديًا للغليان ومشهدًا سرمديًا لثورة السطح في تعبيرها الحكـيم

الخالد عن قلق الأعماق ثم انسحب ذلك على كل شيء فيما بعد، على الناس والأشجار وكل الكائنات في الجبل التي تبدو في عنفوان حياتها لكن ثمة إحساس بالفقد، شيء ما لم يكتمل بعد؛ ولذا فالإحساس بالسكينة والسلام منعدم، يحل مكانه تلك الحياة المتأججة في تألقها، والذي يشعرك بأنه لم يبق سوى الانسحاب في الخطوة التالية وهذا ما لم يحدث مطلقًا منذ سنوات طويلة، سطح الأرض متابعات منتظمة من التعرج والانبساط، الانحناءات الصلبة الزاهية يخيل إليك أن لها صوتًا عليك أن تقترب منها حتى تسمعها، منظومات متوالية لا يكسر إيقاعها سوى بعض البيوت المتناثرة وشواهد القبور التي تصعد على مسافات مختلفة من الانتظام والتواجد.

- بالضبط لم أفهم، لماذا جئت إلى هنا يا بشير!؟

- هارب.

- ممن؟

- من جيش الحكومة.

- ولماذا يا بشير؟

- إن جيشًا بلا عدو واضح ومحدد سيتحول إلى عبيد وينخرط في كراهية الأهل وعدائهم، فهمت يا مهدي؟

- اشرب يا رجل.

هند

قال مهدي:

- بوسالم مات، وسكت فضل، وهنا نحن نغني ونشرب.

ولم تعقّب هند، عقد بشير كفّيه فوق ركبتيه واضعًا رأسه بينهما، انخرطتْ هند معهم في الغناء.

محبة جديدة ودوم عم بتزيدي

حتى نكيد اللي لنا حُسّادِ

يا مهجة للروح دا أنت العيون

لأحلف يمين لغيركم ما هاوى

يا ريم يا للي بأول الورادة

قال بشير:

- لن تكفّ عن الكذب يا مهدي، فأنت لا تستطيع أن ترى سوى نفسك، أنت تشرب ويمنحك الخمر روحًا ساخرة حتى من ظلّك، بوسالم لم يمت، لقد انتحر، تخلص من حياته بيننا.

قال مهدي:

- وما الفرق!؟ أتراه حيًا الآن؟ واقفًا كما كان يرعى شئون النبع والمغارة!؟

ردّ بشير:

- اسمع يا مهدي، عندما يكون الموت أكثر إغراءً من الحياة، عندما يكسر الموت غواية الحياة؛ علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها، بوسالم كره الحياة، لم تكن له حياة خارج حدود حاريت كمعظم الناس هنا، وإنها أول مرة في حاريت يقتل إنسان نفسه، وهذا يعني أن هناك أشياءً جديدة نبتت بيننا، نَمتْ ببطء ومداهنة عميقة حتى أننا لم نتمكن من متابعتها وهي تكبر وتواصل سيرها.

قال مهدي:

- الموت هو الموت، ولا أهمية للأسباب والدوافع، فحينما يجيء الموت فلا شيء يوقفه!!

قالت هند:

- لقد فاجأتنا جثة بوسالم المتدلية على باب المغارة، انتبه الجميع أن شيئًا جديدًا قد طرأ وباغتهم في الصميم؛ إلا أنهم لا يملكون أي إرادة لتفسير المستقبل وقد وقفوا عند حدود الدهشة.

من الواضح أن هذه الليلة لن تمرَّ بسلام، هكذا حدَّث بشير نفسه، فالليل في الخارج ينهش جسد المغارة والجبل والطرقات الصاعدة المتعرجة كأنها أياد تستجدي المطر عقب موسم طويل من القحط، الظلمة تطارد البيوت من الداخل وقد تضاءل ساكنوها، الجميع وقبل أن يفيقوا من صدمة بوسالم فرهود استبد بهم التوجس من المجهول وخصوصًا بعد المناوشات الحامية في أصيل أمس الأول، والتي بدأت عادية بين عقاب بوعسلي وأحد

رعاة البدو الذي ترك قطيعه في السهل فجاء على الأخضر واليابس وتجاوزه إلى حقول الزيتون ومروج العنب، بدأ الأمر بمعاتبة بسيطة وانتهى إلى معركة أصيب فيها أحد الرعاة، تهافتت على إثرها حشود عشيرة العوادة، أخذوا مصابهم وانسحبوا أمام غضب بوعسلي وتهديداته الحاسمة، كل من شهد تلك الواقعة أقسموا بأن الأيام المقبلة لن تمر بسلام وأن زمن السماحة والأريحية قد ولّى بلا رجعة.

من الواضح أن هذه الليلة لن تمر بسلام، حدَّث بشير نفسه مرةً أخرى، فلأول مرة يسكت مهدي على الرغم من توافر الخمر والليل والصحبة.

قال مهدي:

– وماذا بعدُ يا بشير!؟

– نحن بحاجة إلى نور يكشف كل شيء، ينبغي أن نرى أنفسنا من جديد، فالضوء القديم لم يعد صالحًا لمواصلة السير، على الأقل هنا في حاريت.

دخل بومصلط سليم، سالمان المغوش، وبومعزة شلهوب، دخلوا يتقدمهم بومصلط، القوا التحية، جلسوا جميعًا ثم واصل مهدي وقد صبَّ جرعة جديدة من الخمر في حلقه.

– بوسالم فضَّل الموت على الحياة لأنه كان أكثر إغراءً بالنسبة له من متابعة الحياة في هذا الجبل، صحيح أن هناك حيوات تتكاثر، بشر ومحاصيل وبهائم إلا أن ذلك ليس كافيًا، فالجميع هنا يولدون تحت تأثير الخوف من الآتي الذي هو بارود

وميتات مفاجئة تحت القصف، أذكر عندما كنا أطفالا كان أبي يغيِّر أماكن نومنا عقب كل غارة، فقد كان متأكدًا أن الأعداء يعرفون الزوايا التي ننطرح للنوم فيها داخل بيتنا، وعلى الرغم من ذلك كان ينجب المزيد منهم، فالجميع هنا يواجهون الشيطان بالمزيد من الأولاد والمحاصيل والماشية، لم يفكر أحدهم ولو لمرة واحدة على سبيل الاحتمال بأننا نعيش في المكان الخطأ، ومع ذلك لم يجد أي منا فرصة لإقامة حياة خارج هذا الجبل، نحن محاصرون بالكراهية وآخرها هؤلاء البدو الذين تدعم السلطات توطينهم في قلب الجبل على هامش القرى والمدن، وها هم يتحرشون بنا في العمق.

قاطعه بومصلط الذي تابع حديثه باهتمام وجدية:

- ورب خمر الجنان لقد أطاحت الخمر برأسك يا مهدي، عم تتحدث؟ أما علمت بأن بوعسلي لم يعد إلى بيته منذ ليلة أمس.

اندفعت هند متلهفة:

- وهل ترى من دخلٍ للعراك الأخير مع عشيرة العوادة!؟

تدخّل بشير:

- ربما يكون عند أحد معارفه، علينا ألا نتعجل الأمور.

قال سالمان المغوش:

- عقاب بوعسلي لم يبت ليلة واحدة خارج الجبل طوال حياته، وأنا أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لا بد أن للأمر علاقة بهؤلاء البدو!!

قال بومصلط

- أنا لا آمن لهؤلاء الأنجاس، ورب خمر الجنان أنا لا آمنهم ولو كانت إحدى قدميَّ في كروشهم!

- أنتم هكذا تحمِّلون الأمور أكثر مما تحتمل!

كان ذاك رأي مهدي ألقاه في وجه بومصلط فآثر الجميع الصمت، ولم يعد مسموعًا في الحضور سوى طقطقة الأكواب وصوت الستائر التي يحركها الهواء من الخارج، الآن دخل الحديث في المنطقة المظلمة، هؤلاء البدو والأسئلة الغامضة التي تلفُّ توطينهم المتواصل على حافة حاريت بجوار طريق الحج القديم النازل صوب مكة، هذا الطريق الذي قدر له أن يقع في قبضة البدو، وكان العائدون كل موسم يسردون الحكايات التي تفوح بخيبة السلطات المركزية في تأمين السفر للحجاج من الذاهبين لمكة للعبادة ومآرب أخرى، حتى أن خشمان والد منيزل — زعيمهم الحالي — لم يخرج عن سيرة أجداده في سلب الحجاج وقطع الطريق، منيزل هذا وفي أول إظهار لسطلته الكاسحة — وكما يعرف الجميع حكاياته ممن عادوا من السفر — هاجم الطريق يقود عشيرة من الملثمين، جردوا القافلة من أمتعتها، بعد محاصرتهم من الأمام والخلف، وانفلت الملثمون بين القافلة وأخرجوا النوق والدواب برجالها ونسائها عن الطريق، ساقوهم في طرقٍ ملتوية بين التلال والوديان في جوف الصحراء، بينما ظل خمسة منهم شاهرين أسلحتهم في وجوه المسافرين حتى اختفت القافلة وأخذوا معهم عشرة رجال وامرأتين كرهائن أقسموا أنهم لن يمسوهم بسوء إذا

واصل المسافرون طريقهم دون مشاكل أو تبليغ للسلطات وإلا فهؤلاء الرهائن لن يعودوا إلى ديارهم أبدًا؛ بل إن حسان بوناب عديل بومصلط أقسم بالإيمان الغليظة والتي تجمِّد الماء أن خشمان هذا جرد أحد المسافرين في ذلك الهجوم نفسه من ملابسه وتركه عريانًا كما ولدته أمه، وكما سيلقى الله في آخرته وأمره بمواصلة السير إلى مكة حتى يلقى ربه في الطواف مجردًا من كل متاع الدنيا، وحتى تكون حجته مغفورة مبرورة، هذه الغارة وغيرها كثير تختلف في القسوة وأسلوب السطو صارت ميراثًا حكائيًّا استقر في جلسات أهل حاريت قبل أن تشرع السلطات المركزية في توطينهم حيث أقامت لهم صفين من البيوت الأسمنتية المزودة بالمياه والكهرباء والمسجد، وشرعت في تنفيذ شبكة للصرف الصحي وهذا ما دفع بومصلط للدخول في نوبة من الضحك الهستيري كلما تقلبت سيرة البدو في المجلس، يدخل في النوبة وتتعالى ضحكاته الممزوجة بالسعال حتى ينقلب على قفاه ليعتدل بعد فترة قائلا:

- ورب خمر الجنان هؤلاء الناس لا تأتيهم الرغبة في التبرز إلا في الخلاء، لا تستريح أمعاؤهم وتتخلص من فضلاتها إلا وعيونهم محدقة في سماء الله، في غيومها أو نجومها، صرف صحي للبدو!! والله هذا آخر الزمان يا ناس!!

عقب انتهاء بومصلط من نوبته قالت هند:

- يا عم بومصلط إلى متى سيظل هؤلاء هنا!؟

تدخَّل المغوش:

- المهم كيف ستسير أمورنا معهم يا هند؟

قال مهدي:

- أنتم تظلمون الناس وتتحاملون عليهم كثيرًا، مـــا ذنبـــهم إذا كانوا قد ورثوا هذه الحياة عن أجدادهم، تمامًا مثلنا؟

لم يطق بومعزة شلهوب السكوت على مهدي فزعق:

- هذا تخريف يا مهدي، أنت تخلط الأمور، اتق الله يا رجل هل كنا قُطّاعًا للطرق في يومٍ ما؟

قال مهدي:

- هؤلاء الغرباء، هم دومًا غرباء، البدوي غريب طوال حياته لا أرض له أو بيت ولا عقارات تخصه؛ ولذا فهو يرى الســطو على ما عند الآخرين أمرًا مشروعًا.

ردَّ بومصلط:

- إن شاء الله يأخذوا طيزك المرة القادمة يا مهدي!!

استغرق الجميع في الضحك قبل أن يرد مهدي:

- اطمئن يا بومصلط، طيزي في أمان.

من الواضح أن هذه الليلة لن تمرَّ بسلام، هكذا همس بشـــير لنفسه قبل أن تفتح هند موجة الكلام مرة جديدة:

- هل سنمكث كثيرًا حتى نعرف أين اختفى عمي عقاب؟

وأضافت:

- لدى هواجس ثقيلة بأن غيابه متعلق بعراكه الأخير مع البدو.

قال بومصلط:

- أتظنون عقاب بوعسلي طفلا ضل أهله في زحام المدينة؟

الموضوع ليس غياب بوعسلي، قولي الحق!

- ماذا تقصد!؟

- الموضوع موضوعك أنت، حكايتك مع هذا الصبي.

- وأشار إلي بشير – عمومًا أنا مستعد لتزويجكم على مسئوليتي، فهذا صبي أصيل وقد جربته في أعمال الطاحونة، وبإمكانه أن يعمل في طاحونة ويتزوج في طاحونة أخرى.

واستغرق في الضحك ثانيةً قبل أن يستعيد الحديث:

- وليصمتْ جدكِ فضل إلى الأبد، أنتما لا تستطيعان الصمت، وليس من حقه – مهما كان – أن يسلب حق الآخرين في الحياة.

عويل النساء وصياح الرجال المندفع إلى الغرفة لم يمهل بومصلط استغراقه في الضحك والكلام ومحاصرة هند التي ألجمها الخجل، هبَّ الجميع خارج البيت يستطلعون الأمر، بينما اندفع أحد الصبية مخترقًا الأصوات وهو يصيح مخنوقًا بالبكاء:

- جثة عقاب بوعسلي وجدناها على التلة بجوار عمّار.

الأرغفة

"يا ديرتي مالك علينا لوم

لا تعتبي.. لومك على اللي خان

حِنّا روينا ترابك بروحنا

نفني العِدا وما نرخّصِكْ باثمان

وإن ما حمينا ديارك بدمّنا

تحرم علينا شفة الفنجان"

- ادخل يا بن الكلب!!

دفعني بكلتا يديه، ارتطمتُ بجسمٍ صلب، على الأرجح كانت عظمة الكتف الناتئة لناصر حاطوم - خمنتُ ذلك فيما بعد - رائحة أجساد مشوية سدتْ أنفي وعطلت حواسي، أفسحتْ المجال لهواجس الغرائز المرعوبة قبل أن أندفع بكلتا يدي أفتش في كل الاتجاهات بحثا عن موطن جسد بين الهياكل البشرية المرمية على الأرضية اللزجة، لا أعرف إن كان الضوء هرب من عيني أم أن المكان كان شابحًا في لجة الظلام البهيم، آخر عهدي بالنور أن الشمس كانت قد قطعت ربع السماء الشرقي عندما صعدتُ

أولى درجات سلم المبنى قبل يومين.

عقب عودتي إلى البيت أعطتني "ربما" الرسالة، غلافها خالٍ من أية إشارة، بداخلها بضع جمل كُتبتْ بلا تنسيق على نصف ورقة من عجينة الجرائد:

"المواطن مهدي بوشبلي الصالح عليك الحضور بعد غدٍ صباحًا إلى مديرية الأمن العام عناية الرائد صلاح نسيم".

قبل ارتطامي بالكتف الناتئ الذي هو لناصر حاطوم - كما خمنت فيما بعد فالظلام لم يدع فرصة للتعرف على الأجساد إلا من أصواتها - وقبل "ادخل يا بن الكلب" وبعد وصولي للمبنى وسؤالي عن الرائد نسيم، قام أحد الجنود، أمرني بحزم أن أتبعه، أوصلني إلى إحدى الغرف بعد أن سرنا حوالي مئة خطوة انعطفنا أثناءها مرتين جهة اليمين على التوالي، هبطنا خمس عشرة درجة، انعطف جهة اليسار، فتح إحدى الغرف، دفعني داخلها وأغلق الباب خلفي، سمعت ثلاث تكات لمفتاح الباب تبعتها خطوات انصرافه.

هوس الصمت وجنون الاحتمالات ومتاهة التوقع المفتوحة على العدم وطنين الذباب هو المناخ الجديد لانشغال طاقاتي، لا تخرجني منه إلا لدغات متفرقة على فترات لمجموعات من الهوام الطائرة الزاحفة في الحيز الجديد، الغرفة أربعة جدران وسقف وأرضية معتمة من المستحيل أن تتوصل إلى أصل مادتها أهي من الخشب أو الطين أو الصخر، لا يكسر هذه المنظومة في الحيز الجديد سوى الباب وكوة في الجدار المقابل له، الكوة مسدودة بشبكة من القضبان حوافها غير منتظمة، أعلى من مستوى الرأس إذا كنت واقفًا أمامها.. لا ترى شيئًا محددًا خارج الغرفة،

بالداخل سرير حديدي محطم بلا فراش أو أغطية من الأفضل ألا تحاول استخدامه جلوسًا أو نومًا فقد تتحطم رأسك إذا انقلب بك في اتجاه غير متوقع "اسألني أنا"، في هذه الغرفة ليس أمامك إلا احتمالان، إما الجلوس على الأرضية المعتمة الرطبة وإما البقاء واقفًا – أنت واحتمالك إذًا – وقد جربت الاحتمالين وسط الساعات الطويلة وجنون الهواجس وشطحات الأسئلة التي تتكاثر في العمق مثل جيوش الديدان الجرارة في مفاصل جثة تأخذ طريقها للتحلل في طقوس العفونة والنتانة الباذخ.

فيما بعد أخبرني ناصر حاطوم – صاحب عظمة الكتف الناتئة كما أعتقد – أخبرني أن جميع الموقوفين والمطلوبين للتحقيق مروا على هذه الغرفة وأن من بينهم من قضى فيها ليلتين أو أكثر حسبما يجهز المحققون، وأن جميع من دخلوها يسمونها غرفة التأهيل، من الضروري أن يمر عليها الموقوف للمرة الأولى حتى يتهيأ للإجراءات اللاحقة ويصبح إيجابيًا مع المحققين.

ادخل يا بن الكلب وأجساد مشوية، ركَزْ يا مهدي ينبغي ألا تكف عن الحديث مع نفسك يا مهدي.. حتى لا تنسى الكلام مثلما تشك الآن إن كنت ترى أم أن الجو مظلم فالحواس المعهودة التي تبصر بها يبدو أنها ستفسد هنا واحدة وراء الأخرى وتنبت مكانها حواس شيطانية قبيحة لا تثير إلا القلق ولا توصل إلا على الذعر والظلام.

– أنا ناصر حاطوم وأنت؟

– مهدي الصالح.

هكذا تعارفنا، أعتقد لم يسمعنا أحد غيرنا.

- منذ متى وأنت هنا يا ناصر؟

- منذ ستمائة واثنين وخمسون رغيفًا يا مهدي!!

- قصدك خريفًا؟

- لا.. رغيفًا فنحن لا نعلم شيئًا عن حركة الفصول ولا حتى أوقات النهار كما ستعرف.

- تحسبون الزمن بالرغيف يا ناصر!! لا أفهم!!

- إنها طريقة علمنا إياها السابقون وسوف تتعلمها بالتأكيد لأننا مقطوعون عن العالم يا مهدي.. كم رغيفًا أخذت منهم منذ وصلت؟

- عشرة تقريبًا.

- عليك الانتباه والتشبث بزمن الرغيف حتى تحتفظ بطاقتك العقلية، وعمومًا انتبه من الآن لا يهم ما فات.

- ما زلت لا أفهم!!

أول مرة عندما قذفوا بي وسط الجثث المشوية بعد أن أُخرِجت معصوب العينين من غرفة الاحتمالات – غرفة التأهيل – مشيت أكثر من خمس دقائق خلف خطوات آمري.. أول مرة يفتح فيها باب غرفة الجثث المشوية والتي ارتطمت فيها بالعظمة الناتئة لكتف ناصر حاطوم – كما خمنت – صاح أحد العسكر من الثلاثة المسلحين الذين سدوا الباب وبالكاد تعرفت على ملامحهم.. نظرتُ حولي في المكان الذي تسلل فيه بعض النور أكثر من سبعين من الأجساد المشوية وعرفت سبب الرائحة، بالكاد يستطيعون الوقوف في هيئات مشوهة.. صاح أحدهم..

الطعام يا أولاد الكلب.. فكّ أطراف البطانية الرمادية القذرة وانفرط الخبز على الرضية اللزجة قرب الباب.. وضع الآخر جردل الماء بينما صاح الأخير:

- هل هناك مشاكل يا أولاد الكلب!؟

وعندما لم يرد أحد صفقوا الباب خلفهم وانصرفوا وعادت الظلمة من جديد بينما أخذ هسيس الأجساد في الرواح والذهاب صوب الخبز وجردل الماء.. أكثر من ساعة حتى انقطع هسيس الأجساد على الخبز ليعود الوضع إلى ما كان عليه ظلام وأجساد مشوية.

- هذا هو الخبز يا مهدي.

- أهو على عدد الموجودين هنا؟

- بالضبط.

- افرض أن هناك جسدًا من هؤلاء لم يصله رغيفه.

- معناه أن أحدهم سرق حصته.

- وماذا يعني ذلك؟

- لو اشتكى أحد تبقى مصيبة!!

- كيف؟

- ادع الله — إن كان لا يزال موجودًا — ألا يحدث ذلك.. فمعناه أن هذا العنبر يمتلئ بالمياه حتى تبلغ السرة.. كل واحد يصل الماء إلى سرته.. لمدة ثلاثة أيام وبعدها يتدلى أحد العسكر من فتحة بالسقف فيتزاحمون تحته ويلقي لكلٍ منهم رغيفه.. ثلاثة أيام لا داعي فيها لجردل الماء.. فالماء يغمر المكان حتى السرة.

- وكيف تنامون!؟

- الجميع يستند إلى الحوائط وعليه أن يغفو دون أن يسقط.

- وإذا سقط أحد!؟

- المشكلة ليست في أن يسقط أحد.. إنما في سقوط حساب الأرغفة وضياعها.. فلا تعرف كم قضيت هنا من الوقت ويركبك الذهول.

- يا ناصر لم أفهم بعد حساب الأرغفة هذا.

- الموضوع بسيط.. كلما تتسلم رغيفًا منهم عليك أن تقضم منه قطعة صغيرة وتحتفظ بها وهكذا كل مرة حتى تعرف كم رغيفًا أخذت.. كم رغيفًا مر عليك في هذا المكان.

- وهذه القضمات ألا تتعفن وتفسد؟!

- يبدو أن العفن هنا لا ينشط إلا في هذه الأجساد التي تشم رائحتها أو أن هذا الخبز من الحجر لا يتعفن.. ينفع في الأكل وفي حساب العمر أيضًا.

❀❀❀

بحساب الأرغفة قضيتُ في هذا الجحيم سبعين رغيفًا، كل من حولي قابضون على أرغفتهم، حريصون على حساب أعمّارهم.. بالطريقة التي اهتدوا إليها، تمام كما توقع لي ناصر حاطوم ذو الكتف الناتئة والذي يُذكّرني دومًا كلما انبرى للإجابة عن تساؤلاتي والتي لم أصرح بها أبدًا.. فهو الذي يقودني إلى تفسير ما حولي.. ناصر حاطوم يذكرني دائمًا بملابسي وأوراقي الرسمية التي تركتها منذ سبعين رغيفًا وألبسوني هذه السترة والسروال والرقم

الذي لم يبرح ظهري عقب اليومين إياهم في غرفة التأهيل.

دائما يذكرني بتلك الجملة التي تختم كل كلام معه.

- عندما تعود إلى ملابسك وأوراقك الرسمية لا تنس أنك التقيتني هنا.. التقيت ناصر حاطوم. هذا الشخص بتلك الجملة يجعلني أفكر بأن لديه معرفة كافية بشأن مصيري.. ما سبق وما سيأتي.. وذلك ما جعلني متحفظًا في الحديث معه فلا ابتدئ معه أي كلام إلا إذا بادرني هو.. وكذلك يجعلني استحضر نصائح بومصلط في مثل هذه الحالات، والذي يؤكد دائمًا أن أفضل وسيلة لمواجهة الخوف والأوقات الرديئة أن تتوقع الأسوأ وتقطع أي أمل في العالم خارج غرف التحقيق والتعذيب.

بعد سبعين رغيفًا ويركبني الذعر كلما تذكرت صورة الأجساد المشوية تحت كوة السقف وكلٍ منهم يقبض بأسنانه على أطراف سترته وفيها حساب الأرغفة.. يرفعها فوق السرة بعيدًا عن الماء والتلف وهو يحاول ألا يسقط أو تسقط رقبته بين كفيه الممتدتين لأعلى لتلقف رغيفًا جديدًا من كوة السقف يخشى أن يسقط منه في مستنقع الماء الواصل إلى السرة منذ يومين.. يركبني الذعر.. وباب العنبر يفتح ويظهر الثلاثة ينادي أحدهم على خمسة عشر رقمًا من ذوي الأجساد المشوية وكنت بينهم ٥٦٥.

- تعالوا يا أولاد الكلب.

كل منهم يحمل مطرقة خشبية تكاد رأسها تلامس الأرض من قبضة اليد المتدلية لأسفل.

- صف واحد يا كلاب.

وانتظمنا في صف واحد لا نكاد نستطيع الصمود أمام ضوء الممر الذي باغتنا.. أحد الجنود ذوي المطارق كان على يسار الطابور والآخر على اليمين بينما الثالث كان يوجهنا من الخلف.

- يمين.. شمال.. قدام.

ومشينا حسب التعليمات..

- قفوا!! لليمين لف يا كلب.

والتفتنا حسبما أمر.. أمامنا حائط الممر مثبت به حمالات خشبية ممتلئة بقطع جلدية سوداء سميكة ومستطيلة أكبر من مساحة الكف بقليل

- كل واحد يأخذ طَمَّاشة من الحامل.

سوداء قاتمة مطاطية ولزجة.

صوت الموجّه الذي كان في الخلف صاح.

- انظروا إليّ.. ضعوها هكذا مثلما أفعل.. وشد الطَمَّاشة على عينيه ومد يديه ليثبتها من خلف الرأس ففعلنا جميعا مثله.. وعدنا للظُلام مرة أخرى.. غير أنه كان هذه المرة ظلامًا حرًا في حالة حركة وليس بين رطوبة العنبر ورائحة الشواء البشري التي ألفناها.

- للشمال لفْ.. سيروا يا كلاب.

أصوات أقدامنا في الظلام وهي ترتطم بأرضية الممر وبعض الأيدي الممتدة التي تحاول المحافظة على انتظام السير دون ارتطام بالحوائط.. ثم ضربات بالمطارق الخشبية على الظهور والأكتاف وصياح البعض بالألم.. فترة طويلة نالني منها خمس طرقات على

الكتف والظهر وواحدة على الجنب الأيسر.. الآن هدأت أصوات الخطى وغابت الكثير من الصرخات بل اختفى صوتان لحاملي المطارق.. وكأنني كنت وحدي.

- قف يا ٥٦٥.

وقفت.. الصمت والظلمة وعدمية اللحظة.. عاد بعد قليل، سمعت خلالها صوت باب يُفتح ويُغلق

- لليمين لف.. ادخل يا بن الكلب.

بعد خطوات لا تزيد عن العشرة أمرني بالوقوف توقفت نزع الطَمَّاشة من وجهي وتركني وحيدًا أعاني صدمة الضوء.. وضعت كفيّ على عينيّ.. أول شيء تذكرته حساب الأرغفة.. تلك القضمات السبعين التي كومتها بجوار الحائط ناحية رأسي عندما كنت أضطجع تلك الليالي السبعين.. من خلف الكفين أحاول استئناس شراسة الضوء النافذ إلى بؤبؤ العين.. رويدًا رويدا حتى استطعت تمييز ما حولي.. غرفة صماء بالدهان الأبيض.. كل شيء فيها أبيض حتى الأرضية والأريكة الوحيدة التي تشغل فراغها. لها بابان أحدهما الذي دخلت منه خلفي والآخر أمامي في جهة الشمال

- ادخل يا مهدي.

دخلت.. ودخلني بعض الأمل أن أحدًا ما مازال يذكر اسمي ويذكّرني به.. غرفة تشبه السابقة إلا أن بها طاولة مستطيلة فوقها شرشف أخضر.. يجلس خلفها أحدهم.. في العقد الثالث من عمره.. هكذا خمّنتُ.. جبهته مستطيلة من مفرق الشعر وحتى عظمتي العينين في بروزهما وما تحملانه من شعر كثيف غير منتظم.

- اجلس.

وأشار إلى مقعد في مواجهته.. بيننا الطاولة وخلفه شباك عليه ستارة معتمة.. كدت أسأله إن كان هو الرائد نسـيم.. لكـنني تذكرت نصيحة بومصلط في اللحظة الأخيرة لا تسأل عن شيء ولا تتعلق بأي أمل في الخارج.

- اسمع يا مهدي.. نحن نعرف كل شيء.. فقط نريد أن نسـمع منك أنت..

صمت فترة وهو يركّز عينيه في عيني ثم واصل.

- اعتبرني غير موجود واحك كل ما تعرفه عن نفسك.. وحـتى تأخذ راحتك سأنصرف وأتركك.. فقط تذكّر.. عليـك أن تذكر كل شيء تعرفه.. لا تهمل شيئاً.. حتى لـو مشـاجرة عابرة في الصغر أيام المدرسة أو نوع الطعام الذي تفضّـل أو تكره. كل شيء.. كل شيء بغض النظر إن كنـت تعتـبره تافها أم لا فنحن يهمنا كل شيء وله قيمة لدينا ونقـدره.. عندما أنصرف ابدأ بالكلام.. مفهوم؟

تركني وخرج.. مهمة مستحيلة.. أن يمر الجبل مـن فتحـة الإبرة.. لكن لا ضير!! فلأنظر للجبل من تلك الفتحة الدقيقة، ما دمت عاجزًا عن إدخاله فيهـا، ضـلوعي ومفاصـلي تـؤلمني وخصوصًا ركبتي اليمنى والكتف كأنه استقرت فيهما جمرتان لا تخمدان.. لا أشعر بثقلي على الكرسي ولا مرتكز قدمي علـى الأرض.. كأني والغرفة نسبح في فراغ معتم.. تكلم يـا مهـدي الوقت يمر ولابد أن تتكلم.

اسمي مهدي صالح.. جئت من الزمان الخطـأ.. واكتشـفت

ذلك فيما بعد وليس بمقدوري التراجع.. طبع الأجداد على قلبي وأشاروا لي على المعاني فسلكت طرقها بعدما تزوجت وكنت لازلت في مراحل الدراسة توقفت طويلا للنظر في أمر حياتي إلا أني لم أستطيع تغيير أي شيء، من جيل أبي الذي أشعل شرارة التحرير في الجبل والثورة على المحتلين ومهاجمة الفرنسيين في عمق تمركزهم.. من هذا الجيل لم يبق سوى بضعة أشباح تذكر الماضي في جلال وتسخط على الحاضر وتترك ظلالها للزمن يدفعها حيثما شاء، أصبحوا غرباء وسط المفردات الجديدة للحياة.. أحمد الله أنه ليس أحد الأحياء بيننا الآن.. من جيل أبي بقى فضل الشاهين يعالج ذاته في صمت بجوار ضريح عمّار وقد أقلع عن الكلام.. وأبو سالم حارس المغارة والنبع شنق نفسه على باب المغارة، وعقاب بوعسلي لم يطق جلافة البدو واستباحتهم لحياتنا فدخل معهم عراكًا انتهى بطعنة من قِبل أحد رجال منيزل العوادي زعيم البدو بعيدًا عن داره ومحيط قريته.. من تبقّى منهم ينتظر موته بل يتحين أول فرصة لظهور ميتة تناسبه وينقض عليها..

أحب الشاي.. فهو مشروب حساس جدًا يتغير طعمه ولونه لأي شائبة.. اللون والطعم هما أساس هذا المشروب.. الآن أشك في قدرتي على تذوق الشاي لونًا أو طعمًا فقد مر سبعون رغيفًا لم يختبر حواسي سوى الخوف والتوجس والروائح النتنة التي ألفتها فيما بعد.

في طفولتي قبل المدرسة ومنذ نزعت فمي من ثدي أمي بدأت أزحزح في أسئلة الحياة ودخلت فمي طعوم كثيرة لم يكن من بينها الفرح أو الطمأنينة، وفي الرابعة من عمري أخبرتني أمي وكنت أصغر إخوتي:

- أخوك زياد الضابط مات شهيدًا على جبهة القتال ضد الصهاينة منذ يومين، وأنت رجل هذا البيت فخذ بالك على إخوتك حتى أعود من واجب الأجر والعزاء في البيت الكبير..

في الصباح ومع أول ضوء توافدت النسوة نائحات على باب الدار فنهضت ونهرتهم.. علام النواح فأخي قد مات بطلا ومن الواجب أن نفرح لا أن ننوح وطردتُ الجميع.. تعلمت القراءة والكتابة قبل دخول المدرسة وفي المدرسة كنت أنتهي من جميع واجباتي بين الحصص قبل الرجوع إلى البيت وعرفت طريق الكتب، كانت أمي تغدق علينا بالكثير من النقود التي دائمًا ما يضعها أبي في يدها منذ اشتغاله تأمين حاجات القرية بداية من لوازم البناء وحتى الطحين والبذور.. عرفت طريق الكتب وعرف إخوتي البنات الطريق لاقتناء الذهب.. فيما بعد اعترفن لي بأنني كنت على صواب بعدما تبدد الذهب في تلبية رغبات الأولاد والأزواج.. هذه الكتب ربما تكون هي السبب النهائي في وجودي هنا الآن أكلم نفسي بهذه الطريقة.

يوم السوق وفي العصر وبعدما نبت سؤال الأنثى داخلي أدمنت الذهاب إلى ساحة المغارة والسوق القديم أرقب الفتيات وهن يملأن جرار الماء من النبع ويحملنها صاعدات الدرج باتجاه البيوت وقعت عيني عليها.. "بتلة.." هذه الإلهة الإغريقية برقبتها البيضاء الباسقة طالعة من مرمر الصدر صوب العيون الخضر تحت سبائك الشعر الذهب.

الآن وبعد عشرين عامًا وسبعين رغيفًا تقبع هناك على أطلال المكان وخطى الناس وهمساتهم الحادة في قبضة الوحشة والإحباط تحضن الإلهة القادمة "ربما" وتحكي لها عن غيابي وهي تقضم مرارة الكلمات.. لم أودِّعهم كعادتي في كل سفر.. قلت لهم يومان وسأعود.

انفتح الباب بغتة وواجهني المحقق الذي اعتقدت أنه الرائد نسيم.. تجهم صائحًا:

- يا بن القحبة.. هل جئنا بك هنا حتى تتحفنا بسيرة طيزك البهية وتعمل فيها أفلاطون!!؟

صعقت.. انتفضت واقفًا تحت وقع صفعة مباغتة أفقدتني السمع ولم أفق إلا على رؤية العسكري ذي المطرقة الخشبية والطَمَّاشة على وجهي.. وصوت نسيم.

- فسّحه في المزرعة واعطه حمامًا طازجًا هذا الداعر ابن القحبة ربما يستقيم لسانه ويبتعد عن آل العوادي!!

الفتنة

"مات والماس بيده
والبقر يجعر عليه
ياما غربل
ياما كربل
ياما هال التبن عليه"

رفّتْ فراشة على جبين فضل، فاعتدل من رقدته في بهو عمّار بن ياسر، اسند راحته اليمنى على حافة الضريح، وبكت روحه على بوحازم قرقوط، صديقه الذي لم يره منذ ستين عامًا وقت احتدام المعركة مع الفرنسيس في "رقة النسر"، واختلف أهل الجبل في حساب جثث الأعداء بينما لم يعثروا على جسد بوحازم، ولم يُسجَّل اسمه كذلك مع الشهداء على قاعدة النصب التذكاري الذي أقيم مؤخرًا تخليدًا لتلك المعركة، كما لم يعد بوحازم أبدًا منذ ذلك الحين إلا أن فضل يشعر أنه ما زال حيًا، إنه يحسُّ وجوده بقوة وخصوصًا في هذا الصمت بجوار الضريح، تذكر فضل الشاهين رفيقه بوحازم ساعة هوى في أيدي الفرنسيس أسيرًا، حبسوه في دار المختار التي احتلوها منذ البداية، أقاموا فيها مركزًا للقيادة، في ذلك الزمان كان "العنود" في

عنفوان صباه؛ ذلك الفرس الذي تعهده فضل بالرعاية منذ كان في بطن الصخرة أمه، تذكر "العنود" وبوحازم المأسور في دار المختار، "العنود" ربما كان الفرس الوحيد في كل حاريت الذي هيأ له صاحبه جنازةً ومدفنًا تحت ظلال شجرة الزنزلخت يزوره في المواسم والأعياد وحتى في ذكرى المعارك بعد أن واراه التراب وأقام له مأتمًا عزّى فيه كل من يعرف فضل وحزن أهل الجبل وخصوصًا أخته ورّادة الشاهين التي عبّرت عن حزنها بأن أخرجت إحدى جرار حُليها وسكبتها في حجر أخيها فضل وهي التي تجاوزت الخمسين من عمرها، جذبته من ذراعه وأحزانه، أمرته أن يعوّض "العنود" بأغلى أصايل العرب، ما زال صوتها يتردد في روحه:

- انهض يا فضل.. ما زال الوقت مبكرًا على الحزن، فالجبل يئن تحت أقدام الفرنسيس، قم وهات ما شئت من سلاح وجياد، فما قيمة الذهب إن لم نسترد الكرامة.

نهض فضل مذعورًا، تلفّت حوله في جميع الجهات باحثًا عن مصدر الصوت، عن أخته الورّادة.

- لا تفزع يا فضل، أنا الورّادة، وأنا عمّار، وبوحازم أنا كل الأرواح الطاهرة التي نذرت نفسها للكرامة والحرية.

استعاد فضل جأشه، وضع يده على جدار الضريح بينما الأخرى أخذت تمسد شعر لحيته الكثيف.

- أتعود ثانيةً يا سيدي تحرضني بالسلاح والجياد وقد قاربتُ التسعين من عمري!؟

- أنا أبو اليقظان بن سمية، صبِرتُ حتى اشتاقت الجنان إليّ فدخلتها

في غبار صفين وحاشية أمية وكنتُ آية الإمام أبو تراب.

- يا سيدي، إن الزمان اختلف وقد صرتُ وحيدًا ومالي من ناصرين!!

- لستَ على صواب يا فضل، فتصاريف الزمان من أخلص الأنصار، لقد كبرتْ حاريت على يديك، واتسعتْ خطوات أهلها في ظلال جلبابك، فلا تيأس، سيعودون إليك في يومٍ ما.

- أنا على وشك الرحيل يا سيدي، بل إني أشد الخطا نحوه.

- يا فضل، انظر إليّ وأنا أضربهم على تأويله في اليمامة والجمل وصفين، بعد أن ضربوني على تنزيله في شعاب مكة، انظر إلى حذيفة وهو يحدثهم عني على فراش موته، عليكم بابن سمية فإنه لن يفارق الحق حتى يموت، وها أنا أمامك لم أمتْ وما زلتُ على الحق، فأي خلاص أجمل من ذلك!؟ وأنت مني يا فضل!!

استدار فضل، حوّل بصره صوب النافذة المفتوحة على الجبل، على امتداد البصر بقايا أشجار الصنوبر والبطم تشغل سطح الجرانيت الأسود، في القريب من التلة البيوت متراصة على سطوح بعضها ترعى الماعز والخراف، لفت نظره بعض البنايات الإسمنتية المسقوفة بالقرميد الأحمر تكسر انتظام البازلت الأسود، تدحرج بصره صوب حارة البدو، صفان من البنايات الحديثة على بعض أسطحها قضبان المعدن، شبكات لالتقاط البث التليفزيوني، التفت صوب المرقد مخاطبًا عمّار:

- وهؤلاء البدو؟ ها قد أنشبوا مخالبهم في الجبل، بدأوا ينقضّون على أصحابي!

- يا ويلكم لو سارت الأمور على مزاجهم!! إنهم سلالة لن تنقرض من الوجود، إياكم أن تركنوا إليهم!!

- لقد غدروا بصاحبي عقاب بوعسلي، وعادت غاراتهم على المسافرين في طريق الحج من جديد.

- وأنت تتفرج عليهم!؟

- ما يشغلني يا سيدي ألا يركن أهلي إلى موادعة الأعداء والتخلي عن مقاومة اليهود على حدودنا.

- هؤلاء البدو أخطر من اليهود، أما تراهم تحالفوا معهم علينا في يثرب ولولا خندق سلمان ما نجونا؟ أما فكرتَ في مصيرنا لو ركن إليهم محمد وقد حاولوا إغراءه بكافة السبل، عليك بهم يا فضل ولا تركن إليهم.

- كيف يا سيدي، وأنا لم أعد أتحكم في خطوتي!

- اكرههم يا فضل، امقتهم من كل قلبك وبصيرتك، تلك رسالتك، وحرِّض أهلك على كراهيتهم، فإن كراهية الجهل والباطل هي ميزان العقل يا فضل.

- أتحرضني بالكراهية يا سيدي!؟

- من العقل يا فضل أن تعرف أعداءك وتكرههم، وهل أعدى وأخطر ممن لا يقدس سوى الغرائز والدينار؟ إنهم لا ينظرون أبعد من شهواتهم، وإذا تركتهم سيدمرون كل شيء، إنهم ضد مشيئة العدل في هذه الحياة وتلك حكمة حاول أن تعقلها يا فضل!

- ظننت أني نجوت من شرهم عندما غادرت موطن أهلي منذ أكثر من سبعين عامًا يا سيدي!!

- اسمع يا فضل، مثلك ليس بحاجة إلى الكثير من نصحي، فقلبك لم يزل حيًا، فافعل ما يهم عليك به، وأظنك تذكر نشيدي:

لا يستوى من يعمر المساجد، يدأب فيها قائمًا وقاعدا ومـــن يُرى عن الغبار حائدا.

- أين أنا منك يا سيدي، وأنت جلدة ما بين عيني محمد وأنفــه، فكن معي ولا تتركني في هذه المعمعة.

- سيأتونك يا فضل فلا تتخل عنهم، ستشرئب أرواحهم إليـك فكن معهم ولا تغفل عن خطاهم، وأمعن النظر في قلـوبهم، انهض وارض ولا تمت قبل الأوان، وعليك السلام يا فضل.

❀❀❀

الشمس كادت تتوسط قبة الأفق، همهمات يبرز منها صوت بومصلط تقترب من الضريح، تزداد في الوضوح كلما اقتربـت، نباح كلاب متواصل ومختلف في الحدة والوضوح مـن أطـراف حاريت وعمقها وصولا إلى الطريق المتعرج الصاعد تلّـة عمّـار حيث يرابط فضل الشاهين بجوار الضريح، العرق المنساب مـن جسده المنتفض بلّل ملابسه، ترك بقعة كبيرة متصلة تغطي صدره وتزداد كثافة حول الرقبة، وصلوا إلى بـاب الضـريح، دخـل بومصلط وبوعلي شهاب وسالمان المغوش بينما وقـف بـومعزة شلهوب وسدَّ الباب أمام بقية الحشد مـن الرجـال والنسـاء والأطفال، أمرهم أن يسكتوا فسكتوا، اقترب الحشد من الرجال والنساء والأطفال، أمرهم أن يسكتوا فسكتوا، اقترب بومصـلط من فضل، مال عليه، تحسس يده المعروقة، لاحظ ارتعاش جسده، في البداية فتح فضل عينيه، نظر في وجوههم محاولا ضبط حركة فكيه من الاصطكاك، جسده ينتفض، العرق يتساقط من رأسـه في مسارات حول الرقبة، لاحظ الحاضـرون معانـاة فضـل في السيطرة على جسده المنتفض.

قال بوعلي شهاب:

- يبدو أنه محموم.

خلع بومصلط عباءته ودثره بها، نظر إليهم فضل، أومأ إليهم بالجلوس وأخذ ينقّل النظر فيهم.

نطق سالمان المغوش:

- انقذنا يا شيخنا، لقد انفرد الذئب بصاحبك مزيد بوسلطان في منطقة المُغر.

لم يبد فضل تأثرًا، حوّل بصره صوب وجه بومصلط.

- خطف الذئب ابن هلال بوفخري وهو يلعب مع رفاقه في منطقة المُغر منذ ساعتين وخفَّ وراءه بوسلطان داخل المغارة ولم يخرج أحدٌ منهما حتى الآن.

زعق المغوش الواقف بباب الضريح:

- يا شيخنا، كل الناس تجمعوا عند المُغر ولم يفعلوا شيئًا بينما صراخ الطفل وعواء الذئب ينطلقان من داخل المغارة ويملآن الناس بالرعب.

أغمض فضل عينيه وراح في إغفاءة في حين ظل العرق ينشع من جسده الذي هدأ قليلا.

قالت أم زياد بنت حسين البراق:

- وماذا يفعل فضل وقد جاوز التسعين!؟ إنه بالكاد يستطيع أن يصلب قامته في الصعود والنزول من التلة.

ردت عليها جنّات زوجة سالمان المغوش.

- أما رأيت ماذا فعل يوم النبع عندما شنق بوسالم نفسه على

باب المغارة، فضل رجل مبروك يا أم زياد.

صاح بومعزة شلهوب في وجه الحشد:

- اسكتوا، ودعوا الرجل لا تزعجوه، ويا ليتكم تنصرفون!!

استفاق فضل من غفوته على صياح بومعزة، جال ببصره في الحاضرين، أخرج يده من تحت عباءة بومصلط، قبض عليها بوعلي شهاب، جذبه ببطء حتى اعتدل، اسند ظهره على جدار المرقد، بان أثر العرق في ثيابه، أخذ طرف جلبابه وبدأ يمسح وجهه ورقبته، أومأ لهم بالانصراف، بدأوا في الخروج واحدًا تلو الآخر، سأل بومعزة الخارجين:

- ألن يأتي شيخنا؟

لم يرد عليه أحد، ترك باب الضريح وبدأ الجميع خطواتهم نازلين من قمة التلة صوب البيوت باتجاه منطقة المُغر ونباح الكلاب يتواصل على نفس الوتيرة عندما أخذت خطواتهم المتثاقلة تخلي المكان في صمت وعندما بدا المكان هادئًا تمامًا إلا من رفيف الفراش وقف فضل، حمل جرته، خرج من الضريح وتوجه صوب النبع حافي القدمين، ملأ الجرة وعاد بها صبَّها في الإناء المخروطي على باب الضريح، وانصرف صوب نباح الكلاب ومنطقة المُغر.

عندما عاد الحشد يتقدمهم بوعلي شهاب وبومصلط سليم وسالمان المغوش إلى منطقة المُغر على أطراف حاريت الجنوبية حيث يحاصر الذئب في عمق الكهف صراخ ابن هلال بوفخري ومزيد بوسلطان، عندما عادوا وجدوا فضلا جالسًا على باب المغارة التي تسمح بالكاد لشخص منحني القامة بالمرور إلى عمقها، وجدوه جالسًا، وجميع من في حاريت ملتفون حوله،

كان فضل إذًا يجلس حافي القدمين على باب المغارة، عندما رآه الحشد العائد من قمة التلة – حيث تركوه منذ لحظات – نظروا جميعهم في وجوه بعضهم، والدهشة عقدت ملامحهم وألسنتهم إلا بومعزة شلهوب الذي صاح:

– الله أكبر، والله العظيم يا ناس هذه معجزة!!

واندفع منحنيًا على فضل وأخذ يقبّل يديه ورجليه والدموع تتساقط من عينيه، اتسعت مساحة الدهشة بين جموع الحاضرين، وسرت همهمات متسائلة، خرج من بينهما صوت جنّات زوجة المغوش:

– ألم اقل لكم إن فضل رجلا مبروكًا، ها نحن تركناه عند عمّار وعدنا لنلقاه عند المُغر!!

أخذ نباح الكلاب يتلاشى، علا صياح كثير بالتكبير والحمد والتسبيح، أدار فضل نظره في الوجوه المحتشدة حول المغارة كسياج كثيف فخفتت الأصوات، ودخل النهار في طقس المغيب، صوَّب فضل نظراته في جوف المغارة، في الظلمة العميقة، أخذ يهمهم، بدأ الزبد يتناثر حول شدقيه، ثم ازداد في التكاثر حتى صار رغوة دائرية تحدد منطقة الفم وأخذ الزبد الأبيض يتساقط فقاعات على صدر فضل، انتفض من جلسته، فبدت قدماه العاريتان على سطح الصخر متربتين وقد تكلّس عليهما الغبار بفعل العرق المتساقط من كل جسده الذي صار كخشبة، عقد كفيه وعلت همهماته، ربما كانت المرة الأولى لكثيرين في حاريت التي يسمعون فيها صوت فضل الشاهين، فهي المرة الأولى التي ينطق فيها – حتى لو كان همهمات وصياحًا غير مفهوم – منذ أكثر من خمس سنوات لازم فيها الصمت وهجر

الكلام، وضع يده اليمنى على صدره جهة اليسار وأشار بامتداد ذراعه الأخرى صوب ظلام الكهف، شقت همهماته أفق الصمت الذي صار كليًا بعدما كبُرت جنّات زوجة المغوش وقد تنبه الجميع إلى أن الأصوات التي كانت تنطلق من جوف المغارة قد تلاشت تمامًا منذ أن انتفض فضل واقفًا، في البداية ظهر الطفل ابن هلال بوفخري في فوهة المغارة، ظل يتقدم وعندما صار في ضوء الغروب تمامًا وضع كفيه على عينيه وارتمى تحت قدمي فضل، هرولت أمه، احتضنته، وتراجعت به للوراء، لا دبيب ولا همس ولا نأمة واحدة تسربت من بين شفتين، الجميع مسحورون بالمشهد، لم تمض برهة حتى لحوا الذئب يُنقّل أرجله في هدوء ورأسه يتدلى للأسفل حتى وصل إلى قدمي فضل، استقر أمامه قاعدًا على ساقية وقائماه يحملان رأسه المتدلي، أومأ فضل لبوعلي شهاب بالدخول إلى الكهف، خلع عباءته، ألقاها على باب الكهف ودخل، بعد لحظات خرج حاملا جثة صاحبه مزيد بوسلطان، أشار إليه فضل أن يضعها بجانب الذئب فامتثل، كانت الجثة ملطخة بالدماء والتراب وأنياب الذئب واضحة في كل جزء منها وخصوصًا في منطقة الكتفين والصدر، التفت فضل صوب الذئب، أومأ للحضور، أفسحوا له طريقًا فمرَّ الذئب من بينهم وعيونهم تلاحقه حتى اختفى في ضوء المغيب الخافت عند آخر حدود السماء مع الجبل.

الكشف

هيه وياللي راكبين على السلايل

فوق ضُمُر يمْ طرَبه تَحرِيها

سلموا ع ربوعنا وقولوا للأهايل

ضيفنا نقريه لحم الضان حايل

نشبّع الجوعان لو شحت سنينه

والرفق كِبّه إذا وده جمايل

وإيش فضل يسراك إن عانت يمينه

عقب توقف الدم الفاسد الذي اعتاد التسلل من بين فخذيها نهاية كل دورة من دورات القمر قالت هند:

- الطرقات مقطوعة هنا في حاريت هذا النهار، والبيوت صارت معزولة بفعل الجليد الذي لم يكف عن الهطول طوال الأسبوع الماضي.

قالت هند:

- إذاً فلأقم وأنظّف جسدي في هذه الدار الخالية.

هبطت هند ثماني درجات، تسلمتها من عند مدخل الحمام حتى وصلت إلى غرفة الخزين، والسحب الرصاصية والبخار المتصاعد من الأرض يلفّ الجبل والجليد يقطع ما بين البيوت، ورد بالها جدُّها المعزول مرتين، مرة بالصمت وأخرى بفعل الجليد، وفي بالها بشير الذي أجبره انهمار الجليد على ملازمة بومصلط لأكثر من أسبوع محشورًا معه في داره بصحبة الماعز والحمار والدجاج، ففي مثل هذه الظروف تصبح كل الدور في حاريت كسفينة نوح تؤوى كل ناجٍ من زمهرير سقر وتحمل ما ادخر من المؤونة اللازمة لاستمرار الحياة.

هبطت هند الدرجات الثمانية، أحسَّت برجفة خفيفة، لم تربط بينها وبين الجليد المتساقط تحت الأفق الرصاصي الذي يغطي كل شيء في الخارج، هي الآن في غرفة الخزين شبه المعتمة، تحسست بعضًا من قطع الخشب والجذوع الجافة، حملتها وصعدت باتجاه الموقد، وهي تعاني توترًا متزايدًا للسيطرة على ما اعتراها من رجفة، صارت أكثر إحساسًا وانشغالا بها، دفعت الحطب في الموقد، صبَّت عليه شيئًا من المازوت وأشعلت النار، وضعت غلاية الماء وانسحبت تعالج رجفتها جوار المدفأة وهي تدفع في جوفها مزيدًا من الحطب وتدفع في فمها بضع لقيمات ربما استطاعت التغلب على رجفتها قبل أن تغتسل.

بالضبط لم تعرف هند ما الذي أتى بذكراه ضاغطة في هذه اللحظات، تمثّل أمامها المشهد كله منذ حضوره من الشام قبل خمس سنوات برفقة ابن عمها جليل الذي يعمل ويقيم في دبي منذ زمنٍ طويل ويأتي على حاريت في بعض الإجازات الصيفية. من يومها

ألفت خطوتها الذهاب إلى دار عمها وألفت أذنها وروحها تلمس أخباره وهواء حضوره، وعرفت فيما عرفت بعد ذلك حكاية هروبه من الجيش، بل هروبه من أرض الجزيرة بالكامل ورغبته في الاستيطان بينهم.

– لماذا تبقين بعيدًا يا هند؟ تعالي واجلسي معنا.

فاجأها جليلٍ وهي تختلس النظرات والسمع جيئةً وذهابًا قُدَّام باب المضافة، تغلّبت على خجلها، جلست على مرمى من الحلقة حيث يحتدم وطيس الكلام والشراب والغناء، لا تعرف ما الذي جعلها تصدِّقه من أول مرة في حين ظل الكثيرون يشككون فيه وفي كل رواياته، وحتى الآن وبعد مرور خمس سنوات، لا تعرف! ولماذا تظل صورته وكلماته عالقة بروحها إلى هذه الدرجة، حتى صار بإمكانها أن تسترجع كل شيء عنه بمجرد أن تجلس وحدها وتستدعى روحها كأنها طابعة نقشت كل شيء على أوراق هناك في الروح.

– جيشٌ بلا أعداء سينقلب عبئًا على شعبه ولا محالة!!

تذكرت مقولاته وياما تمنت أن تردع مهدي أو جليل بصوت مسموع وهما يفتشان في تفاصيل ما يقول بحثًا عن إدانة أو حتى تناقض، تمنت بكل جوارحها أن تسكت فيها أنفاس الشك والتوجس، وكم كانت فرحتها عارمة عندما علمت بعزم بومصلط على إيوائه وتشغيله معه في الطاحونة.

تذكّرته وهو يطوِّف بهم في الحديث عن دراسته في القاهرة والتي لم تَدُم أكثر من سنتين اضطر بعدها للعودة إلى الجزيرة

لمتابعة شئون العائلة عقب وفاة والده، كانت تضع يـــدها علـــى صدرها وهو يسرد علاقته بالمدينة العتيقة متوقفًا عند وجوه الناس وأحياء المدينة وأجزائها المعمّارية ووظيفـــة كـــل جـــزء وهـــم يستحثونه الحديث عن أماكن بعينها في الريدانية عند باب النصر من الجهة الغربية لسور القاهرة القديم، وهو يصعد بالحديث معهم عن ذكرياته في مدينة لا يكفيها عمر واحد للوصول إلى قرارهـــا ومعرفة أسرارها.

- أتظن يا بشير أنك تستطيع الاختباء منهم حتى وإن كنت بيننا هنا في الجبل!؟

- أنا لست مطلوبًا الآن لخدمة العلم فلدى تأجيل رسمـــي ولـــن ينشغلوا في طلبي قبل أربع سنوات.

ها هي السنوات قد مرت يا بشير، وها هم رفقـــة جـــدي يتساقطون واحدًا تلو الآخر، حتى الذين صاروا أصدقاءك، مهدي تكرر استدعاؤه واختفاؤه ولم يكف عن التعرض للبدو وزعيمهم منيزل العوادي وكأنه قَدَرُ عقاب بوعسلي وقد حملـــه مهـــدي بوشبلي الصالح، لا يستطيع تدبير أموره بعيدًا عـــن الخـــوض في وجودهم الدائم والمفاجئ في قلب الجبل، جليل وبسام وعيســـى وزيد رحلوا مثل الكثيرين صوب منابع النفط للعمل واســـتقبال الحياة الجديدة واستنباتها هنا في حاريت.

عندما فرغت هند من طعامها كان الماء في القدْر قد أصـــبح جاهزًا بينما أطياف بشير وحضوره التذكاري مازالت كصور تمر في خاطرها رتيبة وغائرة وسط كل هذه البرودة في طقس الـــدار

المشبع بالوحشة، حملت الماء إلى الحمام، شرعت تنزع ملابسها وهي تحاول استئناس الفراغ وإقامة جسور الألفة بين جسدها وهذا الفراغ البارد من حولها، لأول مرة تشعر بانكشافها على مثل هذا الفراغ، أذهلتها هذه المسافة التي تفصلها عن جسدها والماء يأخذ طريقه في المنحنيات المنحوتة داخل كهوف الإبطين والردفين وحتى ما بين فخذيها، انتفضت مفزوعة، اتسعت حدقتا عينيها عندما استدارت لالتقاط الصابون وكيس التنظيف، واجهت صورة جسدها في المرآة، تسمرت نظراتها، بينما أخذت يداها تواصلان صب الماء الساخن ودعك البشرة مرورًا على مفردات جسدها واحدًا واحدًا وأعماقها سارحة خارج حدود الزمن، وهذه الوحشة المثالية داخل دار جدها في حاريت، تسمَّرتْ عيناها في المرآة، أرهفت السمع، كان صوت صورتها ينساب هامسًا في روحها وأذنيها:

– أهذا كل ما تبقى لك يا هند!؟ هذا الجسد المنسيُّ، اقرئي يا هند، ها هي الندوب، بصمات الأبدية الغائرة في هذا الجسد تكوينًا وألوانًا، الحلمة النافرة تزداد دكنةً ورسوخًا كلما أوغل الجسد في الزمن عبر دورات الطمث والنزيف القاني الذي ينفجر مع نهاية كل دورة للقمر في قُبَّة السماء على مدار العام لا تتوقف الرغبة الغامضة التي تسكن هذا الجسد شاهرة عنفوانها واندفاعها الكاسح صوب جسد آخر، سيبقى هذا الغموض يا هند قابضًا على هذا الجسد طالما بقي وحيدًا هنا عبر دورات الفصول المتوالية، اقرئي كتابك يا هند، هذا النهد العنيد الذي لا يرتج تحت دفقات الماء، القطرات المتساقطة من

قمته ترتطم بالركبة دون أن تمس الخصر الدقيق، اقرئي فتلك مفاتيح الألفة والاتحاد، خيوط الوصل بينك وبين هذا الوجد الغامض، أنت هنا من قدم، وها هي عشر سنوات مرت منذ أعلن النداء الغامض عن وجوده في جسد هذا العالم ولم يسع إليك أحدٌ من شباب حاريت، وكم تمنيت أن تأخذ خطوة أحدهم الطريق باتجاهك، كل الفتيان يسافرون بعيدًا عن حاريت ولا يتبقى سوى الوجوه العتيقة من رفقة جدك أو الجيل الذي يليه على الأكثر، فبمن يأتنس هذا الجسد يا هند وأنت بعد مازلت غضة ولا طاقة لك على احتماله، غامضًا بين أقرانه من الأجساد الأخرى التي انحل غموضها هنا في هذا الجبل وسط هذا البازلت الذي يتكاثر ويزدهر بلا هوادة محيطًا بحاريت من كل الجوانب وحتى حدود العالم الخارجي.

- يا هند أما آن أن تقرئي جسدك بالبصيرة!؟ خارج عرفان اللمس والحسِّ والبصر!؟ أنت تعلمين أن هذا الجسد لن يفيض بالنشوة والحياة وينحل غموضه هكذا وحيدًا بلا ارتطام بأجساد أخرى ولا طاقة لك على احتماله وهو يشفُّ وحيدًا على مهل رويدًا رويدا وسط هذه الوحشة الكاملة.

مع وصول فضل الشاهين إلى حرم الدار كان طقس الغروب الدامي يحتل مساحة الكائنات المحصورة بجليد النهار الرصاصي، من قمة الجبل في تلة عمّار وحتى محيط الدار يلزمه أكثر من نصف ساعة في الطقس العادي على الطريق الممهد بالنبع والمغارة؛ إلا أن فضل ومنذ نهض قاصدًا الدار اتخذ طريقه متعرجًا بين بقايا أدغال البُطم وحواشي الزيتون متحاشيًا كتل الجليد

المتواصلة، نفض جذعًا يابسًا نفضه من الجليد العالق، سنده على الجدار الخلفي للبيت، صعد من فوقه إلى السطح ثم نزل السلم الحجري، قصد الحمام مباشرةً، كانت هند مستلقية والبخار يتصاعد من كل جسدها العاري، شفتاها مزمومتان وعيناها مغمضتان في سكينة والماء يملأ محجريهما تمامًا وينحدر سالكًا طريقه ما بين الرقبة والأذنين، مرر ساعديه في المسافة ما بين ظهرها وفخذيها، حملها فضل وهو الذي ناهز التسعين من عمره، متذكرًا آخر مرة حمل فيها جسد بوسالم الذي كان يتدلى مشنوقًا من سفح المغارة عند النبع، حملها فضل ونهض خارجًا، وضعها أمام الموقد ودلف إلى داخل الغرفة، فتح خزانة الملابس، رأى صورة وحيده فرهود والد هند في لباس الجندية قبل موته في حرب اليهود الأخيرة، وجدها ملصوقة بالجانب الداخلي من باب الخزانة، تحاشى التطلع فيها والتقط رداءً صوفيًا، لفَّ الجسد العاري الذي هو لهند حفيدته، ثم ألقم الموقد بعضًا من الحطب فسرى الدفء في المكان، جلس فضل يتأمل ألسنة اللهب المتراقص وجسد هند سابحًا في السكينة بينه وبين الموقد.

حين أفاقت هند كان السكون يسم كل ما في البيت، لمحت بياض الجلد الميت على حواف الشقوق في القدمين وأطراف الأصابع لدى جدها، كان البياض ناصعًا وطريًا بفعل رطوبة الجليد الذي لم يتوقف عن التساقط منذ أكثر من أسبوع، حين أفاقت نظرت جدها الذي أشار عليها بمواصلة الرقدة، فاستسلمت لخدر السكون الموحي في جسدها وروحها المشبعين بالسكينة.

قال فضل:

- لماذا بقيت في الدار وحيدة طوال هذه الأيام يا هند؟

فزعتْ هند، كادتْ تقفز من هول الصدمة وهي تصيح:

- أخيرًا تكلمت يا جدي!!

- أنا لم أصمت أبدًا يا هند؛ لكن لم يعد أحدٌ في حاريت يطيق الإنصات إليّ!!

حاولتْ النهوض ثانيةً، أشار فضل عليها بمواصلة الرقدة قائلا:

- يا بنت كبدي لا يطيق الوحدة إلا مجنون أو إله، وأنت مازلت بعدُ صغيرة على احتمال كل هذه الوحدة، فلتأنسي لدى عماتك في مثل هذه الأيام التي تنقطع فيها الدور في حاريت.

- كيف خاطرتَ بالمجيء إليّ في مثل هذا الطقس يا جدي!؟

- يا بنتَ كبدي، لم يعد لي في حاريت إلا أنتِ ومعية عمّار.

نزل السكوت بينهما، حاولت هند النهوض وساعدها جدها هذه المرة فاعتدلت، قامت، شرعت في إعداد قدحين من القهوة، عادت بهما من الداخل؛ بينما فضل الذي انشغل في ترتيب الرماد وجذوات النار في الموقد وهو يتمتم بكلمات غير واضحة وقد أخرج بضع لقيمات يابسة من جيب سرواله وأخذ يلوكها في فمه، وضعت هند القهوة، بادرت جدها قائلة:

- ما دمتَ قد تكلمتَ يا جدي فلم لا تبارك ارتباطي ببشير!؟

صوَّب فضل نظراته مباشرةً إلى بؤبؤى عينيها وظل صامتًا فلم تستطع هند تفادي نظراته والانشغال بغيرها حتى أجاب فضل:

- يا بنت كبدي، إن بشير رجل غريب وحتمًا سيعود يومًا إلى داره، فهل تطيقين الحياة معه في أرضٍ غريبة!؟

- أنا هنا أصبحت غريبة يا جدي، ولن يكون حالي أسوأ مما هو الآن!!

- أنت عنيدة فعلا يا هند، وأخشى عليك التجربة.

- ها أنتَ ترى قوتي بدأت تنحلُّ، وقد أنقذتني هذه المرة..!!

- هنيئًا لمن عرف جسده ولم يتعثر فيه يا هند، فلا تنظري كثيرًا في جسدك وخصوصًا عندما تكونين وحيدة، أنت ما زلت صغيرة على احتمال الوحدة.

- يا جدي، ما دمتَ لا توافق على ارتباطي ببشير، فلم رضيتَ به في حاريت كل هذه السنوات.

- حاريت دار مَنْ يلجأ إليها ويرغب العيش فيها، ومن العيب أن يرفض أهلها الغريب، لكنه لا يصير منهم طالمًا بقيتْ جذوره مغروسة خارجها.

- ألا يمكن أن يصبح بشير جذرًا لنسله من بعده يا جدي!؟

- لا يمكن القطع بذلك يا بنت كبدي قبل مرور أربعين دورة.

تمكنتْ منها الحيرة وتجسد السؤال في عينها وثنيات الجبين التي ازدادت تحفزًا، فواصل فضل:

- لا تندهشي يا هند، إنها عشر دورات للجهات الأربع مَنْ احتملها ودار معها صار بإمكانه أن يصبح أهلا للاختيار.

- أنتَ تلقي بي إلى مسافات جديدة من جحيم الانتظار ولا طاقة بي على تحمُّلها.

- أخشى ما أخشاه عليكِ يا هند هـو الفتنـة وخصوصًـا إذا انطلقت من الجسد.

زمتْ شفتيها وصوَّبت نظرةً حائرةً في وجه جدها الذي تابع:

- سأقصُّ عليك مثلا من زمن عمّار، عن رجل من صحبته عُرف بالضحَّاك السهلي وامرأته خزيمة الـحرَّانية التي أنجبـت لـه ولدين، لم يعرف الضحَّاك امرأته خزيمة قـط إلا في الظـلام عندما يلتقيان معًا تحت الغطاء، لم ينظر مرة واحدة فيما بـين فخذيها، وبإحقاق الحق هي التي كانت تأبى ذلك وهو يلـحُّ عليها المرة تلو الأخرى، وذات نهار احتال عليهـا الضـحَّاك واقتحم خلوتها وكانت تغتسل من حيضها، أجبرها على رؤية جسدها العاري تمامًا لأول مرة عنـوة، ومـرت الأيـام ولم يعاودها الطمث، وبعد عامين فجع الضحَّاك في ولديه أثنـاء قتال المرتدين وأدعياء النبوة، ولم يجرؤ الضحَّاك على الـزواج بغيرها خوفًا من افتضاح عجزه، وبقيت خزيمـة والضـحَّاك وحيدين إلى أن ماتا كأي جذور متحللة في عفونة التربـة لا تصلح للإنبات ومواصلة الحياة.

أيقظتها قرصة الجوع فنهضت، ألقمت الموقـد بعضًـا مـن الحطب وهمّت إلى الداخل تجهِّز شيئًا من طعام بعـد استشـارة جدها، الذي أومأ بالموافقة وهو يحدِّق في الموقد مأخوذًا بألسـنة اللهب المتكالبة على الحطب الجديد فوق سطح الجمر الخافت في الموقد.

قالت هند وهي قادمة من الداخل تحمل الطعام:

- مضى وقت طويل لم نأكل فيه معًا يا جدي!!

- يعلم الله أني لا أود فراقك ولو للحظة واحدة يا هند؛ لكنها الأقدار!!

- إن عمّارا قد أنساك نفسك يا جدي.

- صدقت يا بنت كبدي، ومن ذا الذي يعرف عمّارا ولا يلزمه!؟

لم تشأ هند أن تتوقف عن الحديث في عمّار لولا جلبة وأصوات متداخلة تناهت من بعيد يميزها صياح الأطفال ونباح الكلاب، حسبته هند احتفال الصبية بانقطاع الجليد وظهور الطرقات من جديد من تحت ركام الثلج وخروج الدور والناس من عزلتهم، إلا أن الأصوات أخذت في الارتفاع والحدة، وبدا عويل النساء واضحًا وكأن الأمر أشبه بجنازة لميت جديد في حاريت، وقبل أن يصل موكب الصياح من الدار نهض فضل، فتح الباب واستدار داخلا، أسند ظهره على الحائط المقابل للباب تمامًا عندما ظلّت الوجوه المتزاحمة محدّقة في فضل والصياح يعلو:

- أنقذنا يا فضل، البدو يهدمون عمّار، انقذ عمّار يا فضل.

بعد حين أومأ إليهم بالانصراف فتحركوا واحدًا تلو الآخر وقد هدأ صياحهم وتبعتهم هند، كانوا طابورًا ممتدًا من الأطفال والنساء والشيوخ صوب تلة عمّار يتابعهم نباح الكلاب المتعالى من كل الجنبات في حاريت، لحظات وخرج فضل، أقفل الباب ويمم خطواته شطر حارة البدو.

الـواقعة

"لو السما ضاقت عليك
لو الضيا خاصم عينيك
دوّر ف قلبك على صرخة تانيه
صرخه زي الريح والموجه العتية
وافتكر انك تراب مش عدم
وإن الحكاية مش عبودية
مخلوق يخاف م الفنا
في الرايحه والجايه"

- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، من قال هذا الكلام الفارغ، والله العظيم ما تمنيت شيئًا إلا وأدركته، وها هي أمنيتي الكبيرة تتحقق أمامكم أيها الأنجاس.

بهذه الكلمات انفرط صياح بومصلط شاهرًا بندقيته هناك من أعلى الضريح في صدور جماعات البدو التي حاصرت تلة عمّار من جهة الشرق، حيث مازال المزيد منهم يندفعون صوب

الضريح يقودهم علنًا وللمرة الأولى شيخ العوادة منيزل الخشمي، وعلى يمينه بلحيته الطويلة الكثة وجلبابه القصير الناصع الذي بدت حوافه من تحت فروة الخروف البنية الملبدة، على يمينه عجران الحضرمي مُطوِّع البدو كما يناديه دائمًا مهدي بوشبلي.

وتابع بومصلط:

- فعلا أنا رجل محظوظ، ويا حبذا لو أنهيت حياتي هنا الآن وأنا أصوِّب الرصاص في صدوركم أيها الدخلاء!!

التم أهل حاريت عن بكرة أبيهم على غير استعداد في ليلة بلا قمر من ليالي الشتاء العاصفة متدثرين بما وصلت إليه أيديهم من أمتعة، في الصف الأول وفي مواجهة منيزل وعجران المنتصب على يمينه كان بوعلي شهاب ومهدي بوشبلي وبومعزة شلهوب وسالمان المغوش، في الصف الذي يليه كانت هند وجنَّات زوجة سالمان وأرملة عقاب بوعسلي التي غطى صياحها على الجميع.

- ناداني دم زوجي عندكم أيها الغادرون!!

ثم توالت الصفوف من خلفهم حتى جدار الضريح الذي يعتليه بومصلط مصوبًا بندقيته في غبش الظلمة نحو صدور البدو وكلماته تجلجل في البرودة القارسة:

- جئتم لتهدموا عمّارا وتصبح التلة مرتعًا لأغنامكم!! ها هو الجبل أمامكم حقول من الجرانيت والبازلت، هل بإمكانكم أن تنحتوا منها حجارة كحجارة عمّار أيها الخاملون!!؟

وأشار إلى سالمان المغوش قائلا:

- أوقدْ لنا نارًا يا سالمان فهذه ليلة كالحة، أوقد نارًا ليتدفئ الناس في حاريت، هنا على يسار عمّار حتى تكون فاصلا بيننا وبينهم، وليعلم هؤلاء الدخلاء أنهم لن يهدموا عمّارا إلا على جثة حاريت!!

زعق منيزل للمرة الأولى:

- نحن هنا من أجل الحق، ما جئنا نسفك دمًا أيها العجوز الخرف!!

وللمرة الأولى انطلقت رصاصة من فوق الضريح، لعلع ضجيجها وبرق ضوؤها في سماء التلة تبعها صياح بومصلط:

- هذه المرة إنذار، في المرة القادمة ستكون في صدوركم أيها الأعاجم.

تابع منيزل وكأن شيئًا لم يحدث:

- جئنا من أجل الحق "وأشار إلى عجران".. وهذا رجل يفهم في الدين، يفهم في الحق، قد جاء ليحكم بيننا فاستمعوا إليه.

بادر مهدي غاضبًا:

- أيُّ حقٍ تتحدث عنه أنت ومطوِّع البدو هـذا!؟ إن عمّارا يخصنا ولا شأن لكم به.

تبعته همهمات التعجب من صفوف الحاريتيين قبل أن ينطلق عجران قائلا:

- إن هذه الأضرحة أصنام ويجب هدمها لأن إقامتها شرك بالله، ونحن وأنتم نؤمن بإله واحد ولا أحد غيره يستحق العبادة والتقديس.

من الصف الأول قاطعه بوعلي شهاب:

- صَدَقْتَ يا عجران، حقًا إن إلهنا واحد؛ ولكن طرقنا إليه متعددة، ونحن وأنتم شعوب وقبائل ولسنا شعبًا واحدًا، وأنت تعلم ذلك بكل قلبك يا عجران، فلمَ المغالطة!؟

تابع عجران غير مكترث بكلام بوعلي:

- لقد قطع محمدٌ دابر الأوثان في محيط هذه البلاد وقاتل عَبَدَتَها حتى قضى عليهم، ولن نسمح لكم بإعادة الأوثان ثانيةً..

قاطعه مهدي:

- من أنتم حتى تسمحوا أو لا تسمحوا!! أما كفاكم قتله في صفين وقد بلغ التسعين وأذنه متدلية على رقبته تشخب بالدم، أنسيتم صيحته فيكم: لقد ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله، ضربًا يزيل الهام عن مقيله.. ونحن اليوم سنضربكم على تأويله مرةً أخرى يا عجران، ولن نترككم لتنالوا منه ثانيةً يا مطوع البدو!!

التقط منيزل الحديث مخاطبًا مهدي بوشبلي في نبرة لا تخلو من مودة:

- على رسلك يا بوشبلي، أنت تفتح أبوابًا لفتنة جديدة نحن في غنى عنها، وكما ترى نحن لا نحمل معاول لنهدم الضريح عنوة، جئنا هذه المرة ناصحين ومنذرين.

- ما بقى إلا أنت يا قاتل الحجيج وقاطع طريق الكعبة، ما بقى إلا أنت لتنصحنا وتحذرنا، أجدر بك أن تنصت لنبي الإسلام

وهو يحذركم من معاداة عمّار وبغضه، أليس هذا عمّارا الذي أوصاكم به صاحبكم حذيفة بالتزام طريقه لأنه لـن يفـارق الحق حتى يموت.

تدخل عجران:

- ما كل هذه الجرأة في سيرة الأولين أيها الخرف الفاسـق، إن عمّارا لم يكن سوى صاحبي جاهد في سبيل الله كغيره ممـن حفظ لهم المسلمون حسن صنيعهم على مر الزمن.

رد مهدي بعصبية:

- صحابي قتلته الصحابة!! والقاتل والمقتول كلـهم جاهـد في سبيل الله مثل جهادكم هنا الليلة لهـدم الضـريح، وغـدًا تستبيحون أموالنا ودماءنا غنائم لكم لأننا كفرة!!

قل لي يا عجران أين كانت سبيل الله عندما سالت دماء الصحابة بأيدي الصحابة؛ بل أين كنتم أيها البدو عندما جـثم الأعـداء مـن الفرنسيس والأتراك واليهود على أنفاس الناس في هذه الـبلاد؟ أيـن كنتم وأين كان هذا السبيل يا مطوع البدو؟ إن هذه أرضنا وعمّـار شيخنا وسيبقى بيننا ما حيينا وهذا هو السبيل كما نعتقد.

ردَّ عجران وقد أخذ يمسد لحيته:

- والله ما أراك إلا شيطانًا قد امتلأ فتنة حتى مشاسه.

- أخطأت يا عجران، هذه روح عمّار الذي مُلئ إيمانًـا حـتى مشاسه كما قال نبي الإسلام.

كانت ندف الجليد المتساقط قد أخذت في الحـدة والتكـاثر وبدأ بعضٌ من أهل حاريت المرابطين على التلة في الـدخول إلى

حرم الضريح هربًا من البرودة والثلج المتساقط الذي أوشك على الانقضاض نهائيًا على نار سالمان المغوش وهو يبذل محاولات مستميتة لإبقاء جذوتها مشتعلة فأشار عليه بومصلط بأن يكف عن المحاولة.

- لا فائدة منها يا سالمان، خذ العيال والنساء، واستدفئوا بالداخل، فلن تكف السماء عن الجليد والعصف هذه الليلة.

على مرمى خطوات قليلة من تجمع البدو أخذ بومصلط يرقب المشهد وقد اعتدل مزاجه، وضع البندقية جانبًا، سار خطوتين حتى وصل إلى حافة التقاء السقف مع الجدار الشرقي، جلس وأرسل ساقيه تتدليان على الجدار من الأعلى؛ بينما الحديث مازال محتدمًا بين مهدي من جهة ومنيزل وعجران من جهة أخرى، تفادى بومصلط ثنيات السروال الخارجي المبتل. أمسك طرف سرواله الداخلي، أخذ يجفف وجهه وأطرافه، بصق مرتين عن شمال ويمين، تنحنح ثم انحدرت الكلمات منه تُشيِّع موكب البدو الذي أخذ بالانصراف تجاه حارتهم في أقصى حاريت، انحدرت الكلمات تُشيِّع انصرافهم.

- والله ما أراها إلا ليلة أخرى من ليالي عمّار في هذه البلدة المنكودة، أيها المغفلون الأعاجم، لماذا أنتم منشغلون إلى هذا الحد بما في أيدي الناس، ها هي السلطات قد أقامت لكم حارات في كل القرى على محيط الجبل، أرادت أن تجعلكم رجالها، فلمَ لا تغتنمون الفرصة وتغيِّروا مجرى حياتكم إلى الأبد، لمَ لا تحطون رحالكم وتنشغلوا بالنظر في أنفسكم، أما آن لكم أن تنسلخوا من جلد الصحراء أيها البدو!؟

عند هذا الحد لم يكن خارج الضريح سوى مهدي بوشبلي وبوعلي شهاب الذي نصح بومصلط بالإقلاع عن الكلام والنزول إلى داخل الضريح اتقاءً للبرد والثلج المتساقط الذي تسارعت وتيرته في الهطول فاستجاب بومصلط وعلّق مهدي:

- إنها المرة الأولى التي يستجيب فيها لنصيحة أحد دون أن يتحرش به!!

بادره بومصلط وهو يهم بالنزول:

- إنها ليلة سلام في حضرة عمّار يا مهدي ولا تصح فيها المشاجرة.

فتابع مهدي متحرشًا:

- لا يغيِّر الإنسان عادته إلا مع اقتراب أجله، فهل اقتربت يا بومصلط!؟

- لعل الله يستجيب لك يا مهدي! على الأقل أستريح من سحنتك الباهتة وظلك الناشف يا بوشبلي!!

آخر الداخلين إلى حرم الضريح كان بوعلي شهاب، في الخارج كانت ندف الجليد المتساقط تدمدم على شفير البازلت في محيط الضريح، لم يكن شيء بالخارج سوى البرودة وصوت ارتطام الجليد بالحجر وبعض خيوط واهنة من الدخان المنبعث من نار سالمان التي تجاهد في البقاء تحت وقع الثلج المتساقط. في الداخل ضوء خافت ينبعث من فانوس فضل المعلق على الحائط وبعض من الدفء الذي توطّن في الضريح من أنفاس الحشد وقد ارتخت أجسادهم طلبًا للدفء والألفة.

لما ظهر بوعلي شهاب داخلا من باب الضريح ناداه بومصلط من الركن الغربي وأشار إليه بالجلوس جانبه ثم طلب من سالمان

أن يوقظ النار هذه المرة في موقد فضل داخل الضريح، وقال لبومعزة شلهوب:

- قم وانظر ماذا في صندوق فضل وجهز لنا مشروبًا ساخنًا.

نهض شلهوب ومن قبله سالمان لتنفيذ ما أشار به بومصلط؛ في حين أخذ بوعلي شهاب مكانه بجوار مهدي الذي وجد نفسه مدفوعًا للكلام:

- مرَّ زمان لم نلتق فيه هكذا في حضرة عمّار.

ثم أردف:

- يا حبذا لو كان فضل حاضرًا الآن.

قال بومصلط:

- أين تراه ذهب هذا الشيخ الفاتن، إنه لا يبرح عمّارا في الليالي العادية فكيف غادره الليلة!!؟

فأجاب بوعلي شهاب:

- بعضهم رآه متجهًا صوب الشرق، ناحية حارة البدو.

ثم وجه كلامه لمهدي:

- من أين أتيتَ بكل هذه الفصاحة يا ولد!؟ لقد كنت رائعًا يا بوشبلي.

رد مهدي:

- يعلمِ الله وحده أين كانت ستستقر الأمور لو لم يُهدِّئ منيزل من حدة المواجهة.

تابع بوعلي شهاب:

- لكن هل تعتقد أن الأمور ستقف عند هذا الحد!؟

- ماذا تقصد؟

- ألن يعودوا ثانيةً للتهديد بإزالة عمّار من فوق التلة؟

قال بومصلط:

- أعتقد أنهم لن يجرؤوا على العـــودة ثانيـــةً إلا إذا عاونتـــهم السلطات؛ لكن ما أخشاه أن يعاودوا غدرهم.

استفسر بوعلي شهاب:

- ماذا تقصد؟

- تعلمون أنهم قتلوا عقاب بوعسلي من قبل وأنا أجزم بأن حبس مهدي وإيذاءه من قبل السلطات كـــان بتحـــريضٍ منـــهم، وأعتقد بأنهم سيعودون لمثل هذه الأفعال الخسيسة وخصوصًا بعد مكاشفة مهدي لهم هذه الليلة.

وتساءل بوعلي:

- وماذا نفعل؟

قال بومصلط:

- على مهدي ألا يخلو بنفسه طويلا هذه الأيام حـــتى لا يجـــدوا فرصة للانقضاض عليه.

ردَّ مهدي:

- سأقعد في الدار كالمطلقات يا بومصلط، أهذا ما تريده!؟

عاجله بومصلط:

- أنا أتكلم بجد يا مهدي، هؤلاء بشر غادرون، لا يشغلهم من أمور الحياة سوى المال والنساء ولا يتورعون عن القيام بأي شيء للحصول عليهما.

أكمل بوعلي شهاب:

- معه حق، فكل معرفتنا بهم تؤكد ما قاله بومصلط، وعليك أن تحترس يا مهدي!

قال مهدي:

- الأعمّار بيد الله.

ثم تلفّت حواليه:

- أين ذهبت هند، لقد كانت معنا بالخارج؟

ردت جنّات زوجة سالمان المغوش وهي تضع أمامهم أكواب الشاي التي تخلل عبق أبخرتها حواسهم المحتدة:

- قالت إنها ستعود للدار ربما يعود جدها.

الرغبة في الدفء والالتمام في حضرة عمّار قطعت حواس أهل حاريت داخل الضريح عن كل شيء بالخارج؛ بل إنهم قد نسوا أمر الثلج المتساقط والبرودة الناشبة في قلب الحياة على محيط حاريت وما جاورها من قرى الجبل في طقس الشتاء بالغ الجنون، وبدأ النوم يأخذ طريقه إليهم ما عدا سالمان الذي ظل منتبهًا قائمًا على أمر النار.

❀❀❀

ولاويل وعويل شقت سكون الدفء وخدر النوم في العيون داخل الضريح، قفز سالمان إلى باب الضريح يستطلع الأمر، كانت ألسنة النيران والدخان الأسود الكثيف في موجات متلاحقة تحلّق في السماء الرصاصية الباردة ناحية الشرق.

- حارة البدو تحترق!!

صاح سالمان المغوش واندفع الجميع من نومهم ناحية الباب، النيران المصقولة وأزيز الهشيم المحترق خطف أبصارهم وأسماعهم، فاتسعت عيونهم في الحريق؛ بينما أشار بومعزة شلهوب مصوبًا بسبابته على امتداد ذراعه ناحية سفح التلة:

- انظروا! ها هو فضل صاعد إلينا ووراءه هند وبشير.

كان ثلاثتهم في غبش الظلمة مثل أشباح تقترب من حرم الضريح وكل من بالضريح يطالع ألسنة النيران التي نحتت هيكل الأشباح الثلاثة على صفحة الأفق الرصاصي، كانت الأشباح الثلاثة تقترب منهم في مرمي واحد للرؤية يتقدمهم فضلٍ الشاهين حتى وصلوا إلى باب الضريح، فاستقبلهم بومصلط معانقًا وانخرط في نوبة بكاء هستيرية، فاضت دموعه وكلماته على صدر فضل الشاهين، كانت كلماته أقرب إلى النشيج:

- عائذ بالله يا عمّار منك، كيف نجوتَ، صعدتْ رفاتُك في هزيع حاريت، وأمست خطانا للمحن.

المستور

"ع البال بعدك يا جبل فيحان

شرشف قصب ومطرز بنيسان

عرسك صبايا ولمتك خلان"

- نحن سنصل إلى كل ما نريد، وأنت وأمثالك ملاعين، أشقياء، كفرة، أولاد طيز كلب، طوعًا وكرهًا ستنزلون عند رغبتنا، فاهم يا بن القحبة!؟

دفع الرائد صلاح نسيم بتلك الكلمات صوب مؤخرة مهدي المتدلية من السقف حيث عُقدت اليدان والرجلان في حبل واحد شُدَّ إلى سقف الحجرة، وظلّتْ المؤخرة تتأرجح ببطء مثل بندول عتيق؛ بينما ظلالها أخذت تروح وتجيء على الحائط المقابل بنفس الإيقاع من الملل والرتابة.

غمس مطوع البدو عجران الحضرمي أصابع يده اليمنى في إناء التمر، التقط قبضة منه، حشرها في فمه ثم أتبعها بكوب من اللبن بيده الأخرى، أخذ طرف جلبابه، مسح ما تساقط من نتف التمر وقطرات الخاثر المتسربة على لحيته الكثة العسلية من أثر الحناء ثم تجشأ وقال:

- أيها الملاعين، ماذا تريدون من الحكومة أكثر من ذلك!؟

ألم توصِّل الماء النظيف عبر الأنابيب إلى بيوتكم؟ لماذا تتشبثون بالمغارة والنبع وتلة عمّار أيها الجحدة!؟

صبَّ الرائد صلاح نسيم جرعة إضافية من النبيذ المعتق في الكأس ودلقها في حلقه ثم انتصب واقفًا، دفع المؤخرة التي سكنت برجله فعاودت الظلال تأرجحها على الحائط من جديد بنفس الرتابة والملل، عاود الجلوس كتفًا بكتف بجوار منيزل الخشمي شيخ العوادة الذي ربَّت على ظهره قائلا:

- لا تهتم يا صلاح، في النهاية سيكون وفق مشيئتنا.

- إنه لم يستوعب الدرس حتى الآن يا منيزل، كثيرون مثله لم يحتملوا ربع ما صار معه ثم أصبحوا من أخلص رجالنا.

- لا تنس أنه من القلاقل الفاهمين في حاريت، وإذا كان لك أن تحْذَر العساكر فعليك أن تحْذَر مثل هؤلاء ألف مرة.

توقفت حركة البندول وسكنت الظلال على الحائط، نهض عجران بإشارة من منيزل، فك عقدة الحبل المشدود إلى أسفل الحائط فأخذ الجسد البندول يهبط ببطء حتى استقر أمام صلاح ومنيزل ثم همَّ عجران مستأذنًا:

- لم يبق على صلاة الصبح سوى سويعات قليلة، وأمامي صلاة الليل مازالت، وهذا الفاسق لا فائدة معه!!

جفناه مسكوكان، تحيط بهما هالة بنية تلمع تحت خيوط الإعياء وقطرات العرق التي سالت على الوجنتين وجانبي الأذنين

عندما حطّ الجسد على الأرض، وارتخت المؤخرة وانحل وثاق اليدين والرجلين، ساحت به الذاكرة في بحار غرف التعذيب، تذكّر أنه يجهل كل جلاديه الذين مروا عليه في تلك الغرف، كما اجتهد وهو يخمن لتحديد معالم معذبيه وشخوصهم، غابة من الشكوك كانت تحوط بالمشهد كله وتطال حتى زملاءه في الزنازين هؤلاء الذين لم يعرف واحدًا منهم على وجه اليقين، بالكاد تذكّر ناصر حاطوم في غرفة الأجساد المشوية الذي قدَّم نفسه كدليل لأيام حساب الأرغفة، تذكر ناصر والمسافة بينهما مغروسة على الدوام بالتوجس والحذر، راعه هذه المرة أنه لم يتذكر امرأته بتلة ولا حتى صغيرته ريما، لم يكن بداخله شوق تجاههم على عكس المرات السابقة التي كان حريصًا فيها على اختبار كفاءته الداخلية ورغبته الدائمة في معرفة سير الحياة في الخارج، الآن يرى نفسه زاهدًا تمامًا ومنقطعًا عما يدور في الخارج وها هي الأشباح والتهويمات تمر في شريط الذاكرة وعيناه مغمضتان ولا رغبة لديه في رؤية الأشياء فلم يشأ فتحهما.

دلق صلاح جرعة جديدة من النبيذ في حلقه وجرعة أخرى على رأس مهدي فانكمش جبينه وزمَّ شفتيه وجفنيه بعصبية حتى لاحت العروق النافرة في كل وجهه متخذة من محجر العينين مركزًا لها، وقد اختلط العرق بالنبيذ بالدموع وسال الخليط على رقبته صانعًا بركة من الرطوبة واللزوجة على البساط أسفل الرأس، التفت صلاح صوب منيزل هامسًا:

– الآن سيتكلم هذا البغل.

انتبه مهدي لأول مرة وقد تغيَّرت دورة وجوده في هذا المكان، فمنذ وقت بعيد وجسده المعلق يتحرك ضد مشيئة الجاذبية، وبعدما انفك الحبل وحطّ الجسد المعلق على الأرض نظر إلى معصميه، حلقتان من الورم البني المائل للزرقة بفعل الدم المحبوس والسائر في العروق ضد قانون الجاذبية، نظر إلى معصميه ولم يزل مغمضًا وهمس:

- ماذا تريدون مني؟

- نريد أن تتحفنا بسيرة أهلك البهية!! نريد أن نعرف من أحرق حارة البدو ومن أين أتيتم بالسلاح في تلك الليلة العاصفة عند ضريح عمّار؟

قاطعه منيزل وقد لاحظ شراسة الرائد صلاح، واستبداد الخمر بروحه وانفعالاته فخشي من استبداد غريزة الذئب بالفريسة.

- على رسلك أيها الرائد، إن مهدي رجل فاهم ويعرف مصلحته جيدًا، ويفهم تقدير الأمور، انتظر.. سآتي له ببعض الزاد.

الجسد المتداخل المضعضع والمنكمش على ذاته، والذي هو لمهدي بوشبلي أخذ وحدته الكاملة كجنين يعيش طمأنينته التامة بعيدًا عن خبرة الوجود المتعارضة، استرد الجسد روحه الكاملة وهمس إلى صلاح ولم يزل مغمض العينين:

- ماذا تريد أيها الرائد؟

دلق صلاح آخر جرعة من النبيذ في جوفه وبادل مهدي همسًا بهمس:

- من أنتم؟ وماذا تريدون؟

- نحن عيال الله وصفوته ونريد رؤوسكم، فمن أنتم أيها الرائد وماذا تريدون؟

بوغت الرائد صلاح، حملق في الجسد السابح في السكون باحثًا عن مصدر الصوت ومرتابًا في إمكانية صدور هذا الرد عن هذا الجسد المضعضع الذي يبدو كوسادة قديمة مهترئة، استجمع نفسه من وقع الصدمة وواصل الهمس:

- فليكن.. إذا كنتم عيال الله، فنحن عيال الشيطان وصفوته أيضًا ونريد رؤوسكم كذلك يا مهدي!!

- آسف سيدي الرائد؛ ولكن كيف توغلت بيننا العداوة إلى هذه الدرجة!؟

تهدجت نبرات صلاح وهو يجاهد للحفاظ على صوته الهامس، فانفرطت كلماته متقطعة وموصولة على نظام غير معهود كطفل يتعلم الكلام أو شيخ هرم فقد السيطرة على كلماته:

- كل الناس لهم آباء وأمهات ينتسبون إليهم، بينهم سيرة موصولة وعامرة إلا نحن فصيل اللقطاء، أبناء الحزب، حزب حاكم هذه البلاد ومالكها، هل تعرف يا مهدي معنى أن يكبر الإنسان في هذه البلاد بلا بيت أو أبوين!؟ أظنك لن تعرف! بالتأكيد لي أم مثل كل الناس إلا أنها آثرت ألا تعرفني خصوصًا وأن أبي هو أحد أبناء الحزب!! هل عرفت كيف توغلت العداوة حتى صرنا عيال الشيطان وصفوته يا مهدي!؟

تيقن مهدي أنه هالك هذه الليلة لا محالة، وأن الهدوء والاتزان

في سحنة الرائد ما هما إلا نذير العاصفة، لام نفسه على خطته التصادمية في الحديث، حاول تغيير مجراها و لم يزل مغمضًا:

- هل نفذتْ الخمر يا سيدي؟ أما تقدم لي كأسًا!؟

- نفذ الخمر، ونفذ كل شيء يا مهدي!!

ودخل في نشيجٍ طويل، خليط من الدموع ونبرات الصوت المتصدعة، بادره مهدي معتذرًا.

- أما آن لعيال الله ولعيال الشيطان في هذه الديار أن يتصالحا سيدي الرائد!؟

- في هذه البقاع من أرض الله لن يتصالحا أبدًا يا مهدي!!

عاود مهدي الإنصات محاولا فتح جفنيه كما يفتح بوابة مغلقة منذ سنوات طويلة، وقد اعترى مفاصلها تراكم الصدأ والغبار فتابع الرائد:

- طالما الأرحام في أرضنا لا تتخمر إلا بالفتن، وما دامت الحياة عندنا لا تتكاثر إلا في الظلام فلن تخمد الخصومة والكراهية.

أبدى مهدي محاولة للقعود فساعده الرائد ساندًا ظهره بساعده وواضعًا راحته على الجبهة المليئة بندوب الدموع والعرق والإعياء، بينما عاد منيزل واقفًا وقد استبد به الذهول، حاول كتمان انفعالاته وهو يقول:

- هل استجاب أخيرًا يا صلاح!؟

- أجل يا شيخ العوادة!

- الحمد لله.

كتم منيزل ارتيابه وتابع:

- الحمد لله.. هاك الطعام يا مهدي.

- لا حاجة لي به يا منيزل.

نهض الرائد صلاح نسيم، عدَّل هندامه، استجمع حزمه في نبراتٍ آمرة.

- غدًا نكمل، كفانا ما توصلنا إليه هذه الليلة، قد أصابنا الإرهاق، غدًا نتابع.

استوقفه منيزل قائلا:

- هل عرفت من حرق حارتنا ومن أين جاءوا بالسلاح!؟

- إنه الآن متعب وغدًا سنعرف كل شيء يا منيزل!

رد منيزل بعصبية:

- إذًا فيما كنتما تتهامسان؟ ومن أين جئت بكل هذه الشفقة يا سيادة الرائد!؟

- ماذا تقصد يا منيزل!؟

جذبه منيزل من ياقة قميصه التي نشعت بالعرق والنبيذ، وبدت الخشونة بينهما قولا وفعلا.

- لن تنصرف من هنا حتى أعرف علام اتفقتما أنت وابن العاهرة هذا!؟

دفع صلاح يد منيزل، صرخ في وجهه:

- ومن أنت حتى تستجوبني أيها البدوي!؟

انصرف صلاح غاضبًا تتبعه كلمات منيزل الساخطة.

- قريبًا ستعرف أيها اللقيط يا عميل السلطات!!

والتفت ناحية مهدي صارخًا:

- الآن لم يعد لي سواك فيما بقى من هذه الليلة، وسأعرف كل شيء!!

- أي شيء تريد أن تعرف!؟

- من أحرق حارتنا يا مهدي؟

- الجميع يعرفون يا شيخ العوادة!

- هل تريدني أن أصدق هذه الخرافات، أنّي لعجوزٍ خَرِفٍ جاوز التسعين، أنّي له القيام بمثل ذلك!!؟

- إنه رجلا مباركًا يا شيخ العوادة.

- فضل الشاهين يحتاج من يعينه على قضاء حاجته، فهل يقدر على تسلق الأسوار في حلكة الليل وإشعال النار في الحارة بالكامل؟ أي عاقل يصدق هذه التخاريف يا مهدي!!؟

حتى هذه اللحظة كان مهدي يحاول القعود فلا يستطيع، فجذبه منيزل وأقعده، صرخ فيه ثانيةً:

- لا بد أن أعرف وإلا..

زمَّ شفتيه محاولا إيقاف كلماته وغضبه:

- يا مهدي، كن عاقلا فكما ترى أنت صرت مطلوبًا منّا ومن السلطات، ولن يدعوك بعد الآن لتعيش كما تحب، فحكّم عقلك وتعاون معنا.

- يا شيخ العوادة، عليك أن تعلم وبعد كل الذي صار، أنني لم أعد أعبأ بكم أو بالسلطات، وليس لدي ما أقوله لكم، لطمه منيزل فبرقت عيناه المغمضتان لأول مرة، فاطمأن مهدي إلى أن الحياة لم تزل تسري بهما، فتابع في نبرات متقطعة.

- يا منيزل أنت وأمثالك من البدو عليكم الرحيل من حاريت، فلا مستقبل لكم في هذا الوجود!!

- أي وجود أيها الأبلة، نحن الوجود، ولا يعنينا شأن الآخرين، فقط عليهم ألا يطمعوا في السيطرة علينا فنحن لا نعمل إلا لحساب أنفسنا.

- حتى وإن تحالفتم مع الأعداء!؟

- ليس لنا أعداء إلا من يتدخلون في شؤوننا ويبسطون نفوذهم علينا!!

- وماذا عن الدين يا منيزل؟ أما يأمركم بقتال الأعداء!!؟

- ديننا هو المال والولد وما عدا ذلك فلا يعنينا أمره أيها الداعر! هل فهمت!!؟

- حاريت ليست منازلكم وأنتم غرباء فيها، فلمَ لا تعودون إلى مضاربكم في البادية!!؟

- كل ما تصل إليه أيدينا ونفوذنا هو من منازلنا أيها الأحمق، أما ترى نفسك في بيتي وتحت نفوذي!؟

لم يجد مهدي – الذي تصوَّر أنه سينال من منيزل ومواقفه المخزية – لم يجد سوى الصمت ملاذاً يفرُّ إليه فسكت مطوعاً

ذاكرته التي شردته خارج منيزل، وأحس إشفاقًا يغمره تجاه صلاح الذي انصرف منذ قليل وتهديدات منيزل وثقل جوارحه يتبعانه، شرد بخواطره صوب صلاح وثمة يقين يتردد صداه داخله ينبئه أن مصيره صار رهنًا لمزاج منيزل وأعوانه الباطشين كالكلاب المسعورة وخصوصًا بعد احتراق حارتهم.

- من أحرق الحارة يا كلب!؟

لكزه منيزل بقبضته في عمق ضلعه الأيمن؛ بينما مدَّ مهدي كفه يمسح رزاز البصاق المتطاير على وجهه وهم يتمتم:

- الجميع يعلمون من أحرقها وأنت أولهم، فلماذا تسألني!؟

- بحق السماء لن تنجو من غضبي هذه الليلة يا بن الداعرة!!

لم يكد منيزل يفرغ من مسبَّته واحتدام غضبه، حتى بوغت بفضل الشاهين منتصبًا أمامه يدفعه، فسقط منيزل ملتصقًا في التقاء الأرض بالحائط فاقدًا أي أثر للحركة أو الكلام، دفعه فضل قائلا:

- لقد قال من فعلها.

بوغت مهدي، فتح جفنيه، نظر الشاهين أمامه، سقط يقبِّل قدميه متشبثًا بجلبابه، انحنى فضل، أوقفه، استند عليه مهدي وسارا معًا خارجين صوب التلة.

مِنْ جديد..

"يا قاسي يا أعجمي

يا بو قلب ليل طلسمي

منين بيجي النور والرعشة المبهمة

منين بيجي الذكا والفكرة الملهمة؟!"

مكثت جنَّات المغوش غير بعيد عن السور الجديد الذي شرعت السلطات في إقامته حول المغارة والنبع، وقد ثبَّتوا عليه لافتة جديدة تنبئ الرائح والغادي بأن المكان بأكمله صار مزارًا سياحيًا، مكثت جنَّات تمصُّ شفتيها وهي ترى الحياة تذبل شيئًا فشيئًا في كل ما حولها، تحاول استيقاف المارين ممن تعرفهم لتتحدث معهم؛ ولكن لا جدوى حتى كان مرور بومعزة شلهوب الذي فاجأته جنَّات قائلة:

– ورب الكعبة إن الله غاضب على حاريت هذه الأيام يا بومعزة!!

– معك حق يا جنَّات.

لم يشأ بومعزة أن يعلّق، وواصل سيره باتجاه الطاحونة، وظلت جنَّات غير بعيد تحدّق في العمال الصاعدين والهابطين إلى

جوف المغارة، والدموع تفور في عينيها كلما تـــذكرت جثـــة بوسالم فرهود الذي شنق نفسه على بابها، ولم يجرؤ أحد علـــى إنزال جثته سوى فضل الشاهين.

- والله العظيم إن الله يكره حاريت وأهلها!! أين اختفى فضـــل هذه الأيام!؟

بالفعل لم يظهر فضل منذ أسبوع مضى، عقب مقتل الرائـــد صلاح نسيم واعتقال مهدي بوشبلي للمرة الثالثـــة في ظـــروف غامضة، لم يظهر فضل مطلقًا في محيط تلة عمّار، لم يره أحد يملأ جرته من النبع طوال أسبوع مضى.

- لو كان الله راضيًا على حاريت ما اختفى فضل في هذه الظروف!

وأخذت تحملق غير بعيد من السور الجديد في اللافتة المعلقـــة عليه، سرحت بفكرها في جوف المغارة، في لجج الظلام المتراكم الذي كان مأوى للملائكة في الزمن البعيد عندما كانت حاريت كلها حجارة تغلي وحممًا تنصهر في فوهة البركان.

- حتى بومصلط وبوعلي شهاب يبدو أنهما آثرا الراحة والبعـــد عن المتاعب!! لا فائدة إن الرب غاضب على حاريت!!

الغيظ يرعى صدرها، وخصوصًا كلما علت ضحكات منيـــزل العوادي شيخ البدو في حديثه مع عجران الحضرمي ومسئول الأمن الذي عينته السلطات لمراقبة الوضع حتى اكتمال المشروع، يرعـــى الغيظ صدر جنّات المغوش وهي ترقبهم يخوضون في الحديث عـــن حاريت الجديدة وأفواج الأجانب من السياح والفضوليين الـــذين سيمتلئ بهم الجبل عقب الافتتاح الرسمي، وقد بـــدأت وفـــودهم

بالفعل تنتقل في الوادي منذ الإعلان عن المشروع، وأصبح مألوفًا أن تجد الغرباء من ذوي العيون الزرق والشعور المجعدة، والبشرة البيضاء بزيّهم المتبرج يجوبون الوادي ويستطلعون محيط النبع والمغارة وتلة عمّار.

- من أجل ذلك هج فضل من التلة و لم يعد يظهر في محيط النبع، والله إن السماء غاضبة علينا.

مكثت جنّات المغوش على هذه الشاكلة حتى كادت الشمس تتوسط قبة السماء في نهار ربيعي رائق، لا يُرى في أفقه سوى رفيف الفراشات وأجنحتها الشفافة تعترض مسار خيوط الشمس الحانية، كشّت جنات ذبابة من فوق وجنتها وبصقت عن يمينها دون أن تلتفت فالتصق بصاقها في طرف جلباب بومصلط سليم مهباج الذي واصل خطواته صوب محيط النبع والمغارة قاصدًا مجلس منيزل وعجران ومسئول الأمن، التفت إليها قائلا"

- لو لم أكن منشغلا يا جنّات لسعيت في طلاقك من سالمان أيتها النكدة.

وتابع بومصلط حتى وصل المجلس، ألقى التحية، سحب كرسيًا وجلس دون أن ينتظر ردًا وقال:

- متى تفتحون الكنز يا حضرة الضابط!؟

- أي كنز يا بومصلط!؟

- هذه المغارة السياحية!!

- بعد غدٍ على أكثر تقدير.

تطلّع منيزل في وجه الضابط منــزعجًا ثم وجَّه حديثه صوب بومصلط:

- وماذا يعنيك من أمر الكنــز يا أيها العجوز!؟

- تعبتُ من عمل الطاحونة وقد آن الأوان للعمـــل في خدمـــة زوار المغارة!!

قهقه عجران مستغرقًا، ولما فرغ من نوبة الضحك قال:

- أخيرًا صرت عاقلا يا بومصلط!!

علّق منيزل:

- من لا يعرف بومصلط لا يقدِّره حق قدره.

من بعيد، على مدد الشوف رصدت جنّات المغوش زحامًـــا كثيفًا وغبارًا يتصاعد، كتلة من البشر والقطط والحمير والمـــاعز تقترب من محيط النبع والمغارة، نهضت جنّات تستطلع الأمر، في البداية لم تصدِّق ما رأت وأخذت تهز رأســـها، إنـــه بشـــحمه وجرته، إنه فضل يتقدم هذه الكتلة الحية المتدحرجة ناحية النبـــع عازمًا على ملء جرته بالماء والعودة بها كعادته إلى الضريح، كان يتقدمهم على مسافة واضحة وهم وراءه في صفوفٍ غير منتظمة والغبار يتصاعد فوق الرؤوس.

همّت جنّات باتجاه الموكب تطلق الزغاريد فرحة بعودة فضل، أثارت انتباه مجلس عجران ومنيزل فانقطعوا عن الضحك والكلام حتى بومصلط قام وسار وراءها تاركًا المجلس.

استشعر الضابط خطورة الموقف، صوَّب بصره تجاه منيـــزل وعجران طالبًا المشورة، فعاجله منيزل:

- إنه يقصد النبع ليملأ جرته ويعود بها إلى الضريح، هكذا اعتاد، فلا تعترضه.

قاطعه عجران:

- أيُّ نبعٍ، لقد أغلقه العمال منذ أمس بالخرسانة المسلحة فوق الغطاء القديم، ومن الصعب حتى أن يحدد مكانه.

قال الضابط بنبرة حازمة:

- لا بد أن أمنعه، من يكون فضل هذا!!

عاجله منيزل:

- إياك أن تفعل، فهو كبيرهم، وسيحدث عراك لا تحمد عقباه، اتركه وسيرتد خاسرًا.

أردف عجران:

- حتمًا سيتلمس الواقع الجديد وسيقتنع به.

لا شيء سوى الغبار والصمت يتصاعدان في هذا الأفق الربيعي الذي لا يعكر بهاءه سوى هذا الغبار المتصاعد من حفيف الأجساد واحتكاك الأقدام بالرماد الذي تحرر من لزوجة ماء المطر منذ وقتٍ قريب وصار غبارًا يتصاعد فوق الرؤوس في هذا الحشد.

وصل فضل الشاهين إلى البوابة الجديدة التي شيدتها السلطات كمدخل للوحدة السياحية التي تضم النبع والمغارة، وصل إلى البوابة؛ بينما وقف الموكب وراءه بضع خطوات وقد اشرأبت أعناقهم وتراصَّت أجسادهم يستطلعون المشهد وفي صدورهم هاتف مكتوم ينبئهم بأن اللحظات القادمة هي من أيام فضل الشاهين المشهودة.

دفع فضل البوابة الجديدة التي لم يجف طلاؤها بعـــد، كـــان مجلس منيزل وعجران على يساره، التفت إليهم دونما أية إيمـــاءة وواصل هبوطه درجات السلم، نفس الدرجات الست والعشرين أخذ يهبطها حتى وصل إلى فوهة النبع، حدَّق في المكان، لم تكن الفوهة أو غطاؤها الذي يركن جانبها لم يكن لأيهما أثر، حملـــق أكثر فأكثر وقد انحنى ليتأكد من المعالم الجديدة وضع جرته، اتجه صوب باب المغارة، جذبه للخارج وغاب داخل المغارة ثم عـــاد بعد لحظات حاملا ساقًا حديدية طويلة، ضربها أسفل الخرســـانة الجديدة فبان سطح الغطاء الحجري القديم، جذبه فضل كاشـــفًا عن فوهة النبع، ثم طوَّح الغطاء بعيدًا فطار في الهواء آخذًا طريقه خارج محيط النبع والمغارة فوق سطوح الدور المجـــاورة، هلـــل الموكب وهم يتابعون الغطاء الطائر فوق البيوت، تعالى صياحهم وفاضت عيونهم بالدموع وحناجرهم بالتهليل، أخذ فضل جرته، غمسها في البئر حتى امتلأت، حملها ونهض بها صاعدًا الدرجات الست والعشرين متجهًا ناحية الضريح، والجميع خلفه يهللـــون ويكبرون؛ بينما عاود منيزل وعجران والضابط مجلسهم بعـــدما أمروا العمال بمواصلة العمل وإعادة الغطاء مرةً أخـــرى، بحـــث العمال عن غطاء جديد، سدوا الفوهة مرة أخرى ووضعوا عليها الخرسانة وواصلوا العمل في مغارة حاريت السياحية.

بعد صباحين من واقعة غطاء النبع الطائر كان الوجهاء الجدد في حاريت يتقدمهم محافظ الجبل وطليعة من السياح يفتتحـــون المغارة في ثوبها الجديد، لم يكادوا يفرغون من مراسم الاحتفـــال حتى ظهرت الطائرات في الجو كالبرق وبدأت الحمـــم تتســـاقط على الجميع من كل اتجاه، تذكر كبير الوجهاء باب المغارة، هرع

إليه حاول جذبه فلم يفلح، طلب مساعدة الحاضرين الفزعين من هلع القصف، انفتح الباب، جوف المغارة ركام من الظلمة والخطوات تنغرس في رطوبة أرضية المغارة، لكن غريزة الحياة كانت أقوى من العتمة والأرضية الرطبة، أخذت همهماقم تعلو رويدًا رويدا في جوف الرطوبة والظلمة، والصدى يمنح حركتهم إيقاعًا مخيفًا وهم يواصلون خطواقم كالخفافيش في عزلة الصمت والعتمة والرطوبة في جوف المغارة.

في الخارج أعلى التلة وجوار الضريح كان بومصلط وبوعلي شهاب وسالمان المغوش وزوجته جنّات وبومعزة شلهوب يتلمسون أنفاس فضل الشاهين، من داخل الضريح عاد بومعزة صائحًا:

- لا أثر على وجوده هنا أيها الناس!!

من قمة التلة كان بومصلط يحدِّق صوب الغرب صائحًا وهو يشير بذراعه:

- إنه هناك يسير وسط صخور البركان، ومعه هند هلمَّ نلحق به.

نزل الجميع صوب الغرب يقتفون أثر فضل الذي بدا كشبح في البعيد، ساروا وراءه ودخان الحرائق والدمار يتصاعد من جوف حاريت وصوت جليل يأخذ بكل أبعاد المكان سمعه أهل حاريت عن بكرة أبيهم:

- انهض يا فضل فأنا الورَّادة وأنا عمّار وبوحازم أنا كل الأرواح الطاهرة التي نذرت نفسها للكرامة والحرية.

الكويت ١٨ نوفمبر ٢٠٠٣م

٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ

المؤلف

* **عباس منصور**

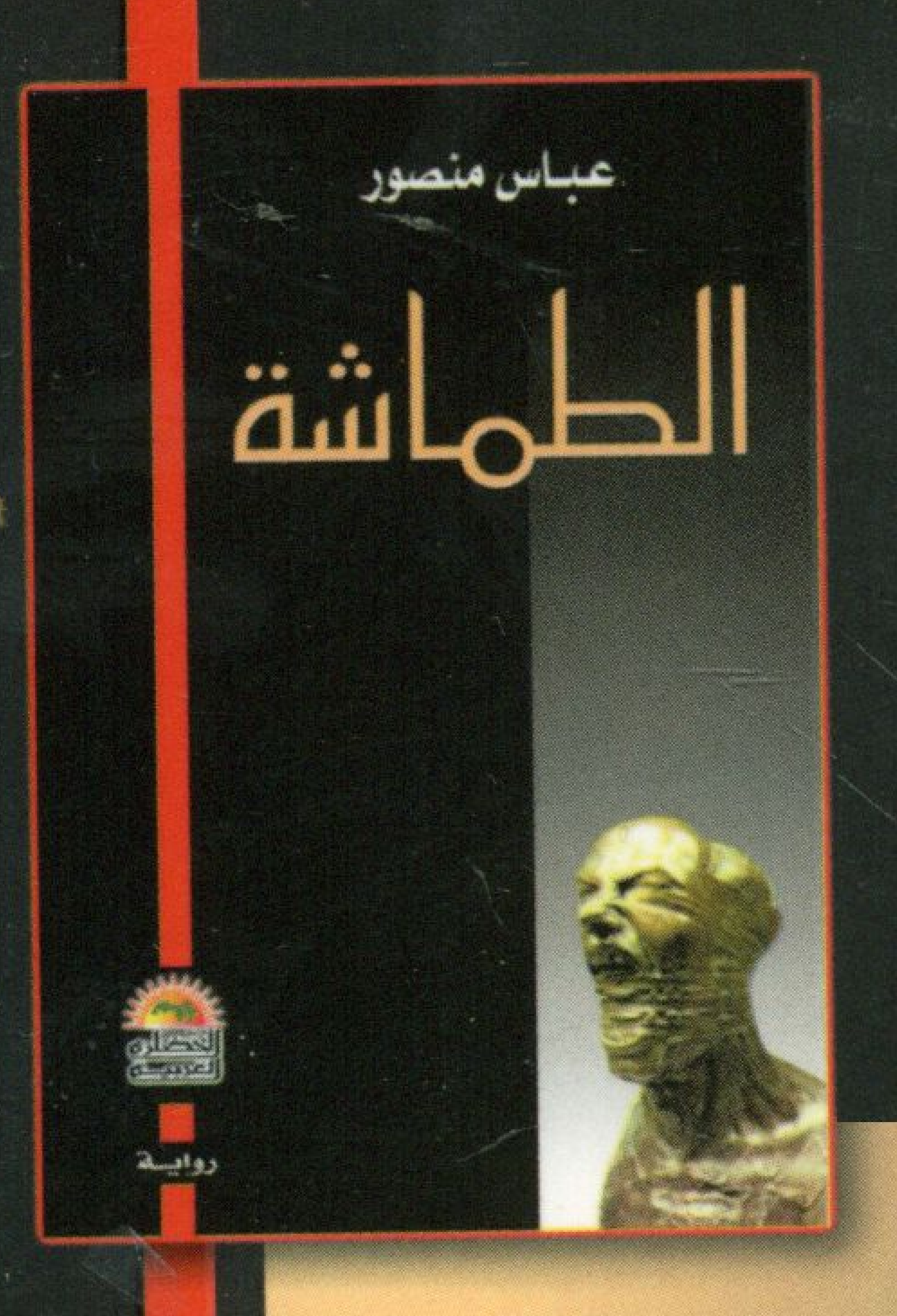
- من مواليد سندبسط – زفتا – غربية ١٩٦٢.
- تخرج في دار العلوم ١٩٨٥.
- يعمل بالتربية والتعليم منذ ١٩٨٧ على فترات متقطعة.
- عضو اتحاد الكتاب وأتيليه القاهرة.

* **صدر للشاعر:**

- **وجهان في المساء**، دار الغد، ١٩٩٠.
- **مدينة أخرى**، مطبوعات الرافعي، ١٩٩٣.
- **في المقهى طبعًا**، أصوات أدبية، ١٩٩٦.
- **الخسائر الناجمة عن المشي**، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣.
- **صلوات مصرية**، دار طابا، ٢٠٠٤.

* **قيد الإصدار:**

- الشاسو، مسرحية.
- سيرة حبشي، رواية.
- واحد من مصر، مقالات.



أهذا كل ما تبقى لك يا هند !؟ هذا الجسد المنسىُّ، اقرئى يا هند، ها هى الندوب، بصمات الأبدية الغائرة فى هذا الجسد تكوينًا وألوانًا، الحلمة النافرة تزداد دكنةً ورسوخًا كلما أوغل الجسد فى الزمن عبر دورات الطمث والنزيف القانى الذى ينفجر مع نهاية كل دورة للقمر فى قُبَّة السماء على مدار العام لا تتوقف الرغبة الغامضة التى تسكن هذا الجسد شاهرة عنفوانها واندفاعها الكاسح صوب جسد آخر، سيبقى هذا الغموض يا هند قابضًا على هذا الجسد طالما بقى وحيدًا هنا عبر دورات الفصول المتوالية، اقرئى كتابك يا هند، هذا النهد العنيد الذى لا يرت... دفقات الماء، القطرات المتساقطة من قمته ... بالركبة دون أن تمس الخصر الدقيق، اقرئ... مفاتيح الألفة والاتحاد، خيوط الوصل بينك... هذا الوجود الغامض.

يا هند أما آن أن تقرئى جسدك بالبص... خارج عرفان اللمس والحسِّ والبصر !؟ أنت ... أن هذا الجسد لن يفيض بالنشوة والحياة ... غموضة هكذا وحيدًا بلا ارتطام بأجساد ... ولا طاقة لك على احتماله وهو يشفُّ وحيدًا على مهل رويدًا رويدًا وسط هذه الوحشة الكاملة.

للفنان/سامي محمد

